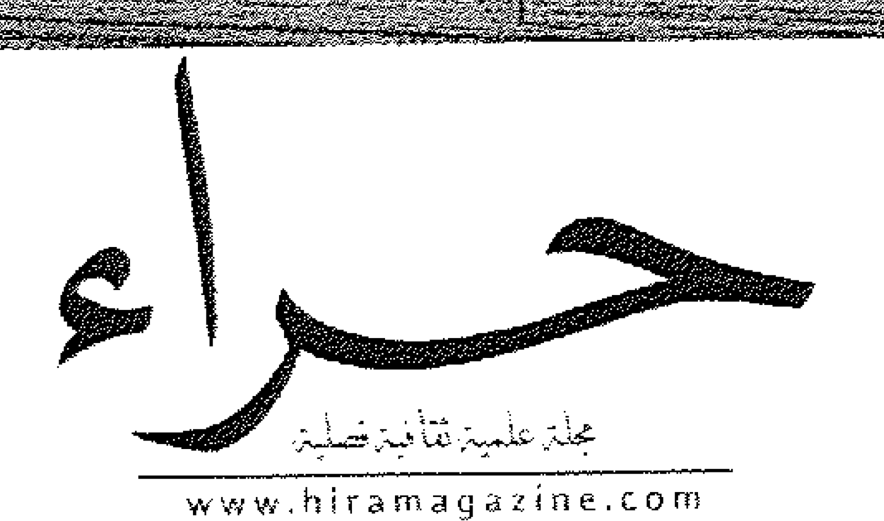


العدد السادس عشر / السنة الرابعة / (يوليو - سبتمبر) ٢٠٠٩
حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
• الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي - فتح الله كولن
• المسلمون بين الشدائد والبشائر - أ.د. الشاهد البوشيخي
• مظهر جلال الربوبية في القرآن - أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
• مدرسة صلاح الدين الدولية - أ.د. محمد الأحمدي أبو النور
• سكة حديد الحجاز - صالح كولن

بسم الله الرحمن الرحيم



www.hiramagazine.com

العدد السادس عشر – السنة الرابعة (يوليو – سبتمبر) ٢٠٠٩

إشكالات الحياة وغاية الوجود

القضية المضنية التي أضنت العقول، وأقضّت المضاجع هي قضية معنى الحياة وغاية الوجود، وقد كرّس لها الأستاذ "فتح الله كولن" العديد من كتبه ومقالاته، وراح يتأملها متجاوزا الحلول السطحية التي لا تلامس الوجدان البشري ولا تتعمق في طواياه.

فمطالب هذا الوجدان رفيعة جداً، وأشواقه ومطامحه عالية جداً، تتجاوز المحدوديات ولا تتوقف إلاّ عند اللامتناهي والمطلق الإلهيين... ومن هذه النقطة يأتي مقال الأستاذ "كولن" الموسوم بـ"الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي" ذاهباً معه إلى جذوره في أزليته الأولى وأبديته اللانهائية. وفي هذا الفكر تكمن الأجوبة على كل التساؤلات التي يثيرها العقل ويشعر بها الوجدان.

وجذور هذا الفكر الماورائي لا يعني بأي حال من الأحوال أنه لا يحسن معالجة إشكاليات الواقع الاجتماعي، فمقال الأستاذ "محمد عمارة" عن الفرد والطبقة والأمة، يأتي رداً على مَنْ يذهب به الوهم إلى حدّ اتهام الإسلام بالقصور عن معالجة إشكاليات المجتمعات البشرية أفراداً وطبقات وأمماً، لأن "الوحي" بنظره الشمولي والجمعي لا يمكن أن يُغفِل الجوانب الاجتماعية وما تتردّى فيه من إشكاليات.. وكما للفرد أحلامه فإنّ للأمة كذلك أحلامها، ولعلّ واحداً من أعظم أحلامها هو "سكة حديد الحجاز"، هذا الخط الذي كرست الدولة لإنجازه والسلطان عبد الحميد الثاني نفسه كل الإمكانات الفردية والشعبية من مال وجهد وعرق وتعب. وقد كتب الأستاذ "صالح كولن" عن هذا الخط المهم، وكيف بدأ حلماً ثم انتهى واقعاً.. والدكتور "عمار جيدل" في مقاله الموسوم "الطريق السريع، المسلك والسالك" يهدينا إلى أقصر الطرق كما هو عند الأستاذ النورسي لنفعم وجودنا الأرضي بالجهد والعرق وتجاوز العقبات بأسرع ما يمكن للوصول إلى ذلك الشعور المشتق من الإيمان كأفضل ملاذ للروح التي تناضل من الخروج من ظلمة الشرور الدنيوية إلى نور الأخروية الأبدية...

وفي باب "دراسات إسلامية" يتحفنا الأستاذ "فريد الأنصاري" بمقاله الموسوم "كلمة الله في معركة السلام" مبيناً فيه أنّ عصرنا عصر "الكلمة" وأنها مفتاح لكل المغاليق والإشكالات. فالكلمة فكر متحرك ووجدان مشع، فالكلمة القرآنية يمكنها أن تغذي روح الخليقة بأجمعها ومن جذوتها الخفية تتقد شعلة الخلود والأبدية منيرة عوالم الإنسان الفكرية والوجدانية وباعثة للسلام والأمان في أرجاء الروح...

وبعد، نرجو أن نكون قد وفقنا في إعطاء قرائنا الأعزاء ملامح من موضوعات هذا العدد المتنوعة، مع الاعتذار للأخوة الأساتذة الذين لم يُتَح لنا التنويه بمقالاتهم على أهميتها، والله الموفق... ■

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجما إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
conen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20165523088
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

دار الجمهورية للصحافة



المحتويات



EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Sa
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocc
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
لجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

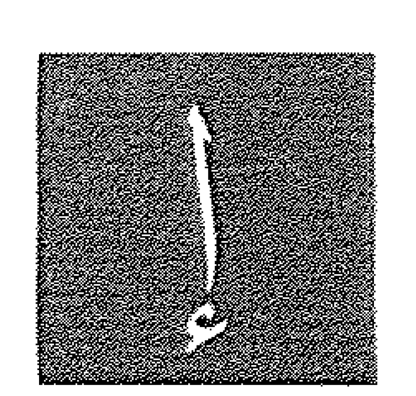
SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920

الخصوصيات الأساسية للفكر الإسلامي

فتح الله گولن



إن جذور الإسلام لانهائيةٌ فوق الزمان والمكان، والمخاطَبُ في الإسلام هو قلب الإنسان الذي يسع السموات والأرض بسعته المعنوية، وهدفُه السعادة الدنيوية والأخروية.

الإسلام، اسم الصراط المستقيم الممتد من الأزل إلى الأبد، وعنوان النظام السماوي المنزل لفتح مغاليق القلوب جميعاً؛ ابتداءً من قلب أشرف البشر في الأرض ﷺ، وانتهاء بقلب البشرية التواق إلى "الخلود".

منذ أن نصب الإسلام سرادقه في الأرض وظّف طاقاته كلها في مخاطبة القلوب، واستطاع أن يرسم صورتَه في كل وجدان، متفاعلا

مع وحدات الحياة كلها.. فثم تناسب دائم بين تعمقه في الصدور وتأثيره في مفاصل الحياة؛ فبقدر عمق تغلغله في الأرواح وتجذره فيها، يطفح فيضُ تأثيره في حياتنا وتزداد انعكاساته فيما حولنا.

بل نستطيع القول بأن ما نلاحظه في محيطنا من الشوق والرغبة والتلقي بالقبول نحو الإسلام إنما تتحقق متناسبة طرديا مع عمق هذه الصورة الداخلية المشرقة ومدى سعة إحاطتها، وهذا يعني أنه كلما كان هذا القبول المسبق ضاربا في أغوار أعماق الإنسان يقوي تأثيره في محيطه. وفي ضوء ما يمليه هذا الإذعان الداخلي يأخذ المجتمع وجهته في مسيرة حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية.

نعم، إن المجتمع -من كل الوجوه- يحمل في ملامحه خطوطاً مهمة من هذا الوازع الداخلي، وينعكس الفن والأدب إلى الخارج حاملَين ألوان هذا المحتوى الداخلي ونقوشه، ويُسمَع ويُستشعَر في كل مكان بين سطور الوجود والأشياء صوتُ هذا المحتوى الداخلي ونَفَسُه وأداؤه، ويشجي كل شيء مرئي أو خافٍ أسماعَنا بأنغام رائعة يلحنها لسان هذا المحتوى الداخلي الصامت بلا صوت ولا كلام.

ومن هذا السر فإن أصحاب القلوب التي فُتحت بالإيمان ما يلفظون من قول إلا وتُسمَع منهم نغمات من الوجود السرمدي.. وهؤلاء كلما يلقون نظرة إلى ما حولهم يحسبون أنفسهم في ممرات زمردية تؤدي بهم إلى سفوح الجنة، وهم بذلك يمزجون وعثاء السفر بالسعادة التي سيلقونها في نهاية المطاف.. ففي كل مظان التأفف تراهم يسيحون قائلين: "مرحى... مرحى".

إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، بحيث إن كل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والآخر: وسيلة. فالإيمان الذي هو كـ"شجرة طوبى" تنشأ من هذه البذرة فتغطي بما تؤتي من ثمار المعرفة سماءَ حس الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تستحيل العلوم والمعارف كلها إلى العشق والاشتياق والحرص بحملة داخلية وشعور وحس داخلي، ليحاصر ذاك الإنسانَ من كل جهة، فيصيّره إنساناً جديداً قائماً على محور الوجدان... فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. فتحمل عبادتُه وطاعته سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة، وذلك العشق والاشتياق، وتصير مناسباته البشرية انعكاسات لهذه اللدنية... وتتمحور حملاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كلها، حول هذه القوة الجاذبة "إلى المركز"... فتتشكل فعالياته الفنية وأنشطته الثقافية بهذه المقومات الداخلية، وتتوسع بها، وتبرز بألوان القلب وأدائه الجميل تماماً. ولئن كان الحاصل الظاهر أثرا فنياً أو كتاباً أو رسماً أو شعراً أو لحناً، فإنه يهتف بمشاعرِ وأحاسيس القلب المتغذي بهذا الأنموذج والجوهر الداخلي... فيهتف معبّراً عن الهيجان أو الخفقان المرتشف من واردات القلب لصاحب الأثر، وعن عشقه، ووصاله أو هجرانه. وكذلك الحال حال الروح المشبع بالإيمان والمعرفة والمحبة والأذواق الروحانية، إذ تُبدي رسمَها الداخلي على الفن والثقافة والأنشطة الأخرى، وتهتف بمعاني (الإنسان - الكائنات- الله)، المتحولة في أعماق الروح إلى "خُلاصات" أو "عُصارات" رائقة وتسعى دوماً إلى "نظم" المعاني الغائصة في بواطنها العميقة.

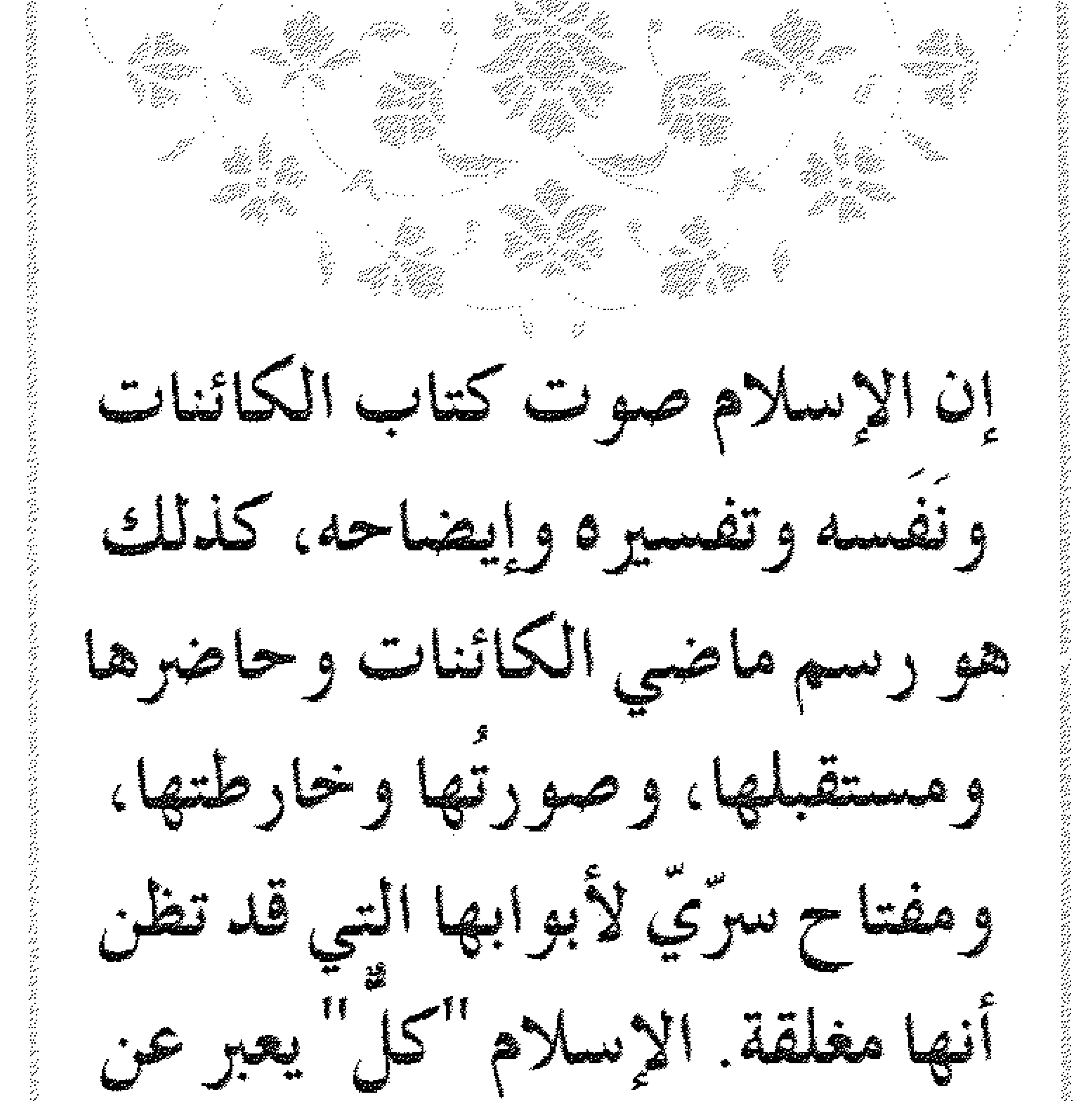
قد لا يكون الإنسان في كل أحواله قاصداً هذا القصد أو متحريا هذا الأمر، إلا أن حركة النظم الإيمانية في قلبه تقود كل تصرفاته، بإرادته أو من غير إرادته إلى هدف معين. ومن طبيعة الحال أن تنعكس ألوان "حركيته" الداخلية وأداؤها على نوع حياته وأسلوبه وشخصيته ومناسباته الاجتماعية... وكذلك تبرز تلك اللهجة والأداء والأسلوب في أعماله الفنية وأنشطته الثقافية، لأن موقع الإنسان في الوجود، وغايةَ خلقه، ومقصودَ فعالياته، وتداعياتِ الفكر عن هذه الغاية وذلك المقصود، ووظيفته ومسؤولياته، ستحيط مع الزمان بكيانه وتحاصره، وتُوجّهه في كل ساعة نحو التميّز والفائقية إزاء الوجود الأوسع والأعلى بأشد المشاعر حيوية وتأثيراً.

هذا الفكر الأول الموجّه، يتمادى في تأثيره على أنشطته الذهنية والفكرية والعلمية... وبعد مدة، سيحقق حصول "جبلة ثانية" فيه. هذه الجبلة تلفت الأنظار إلى نفسها من البواطن في كل صفحات حياته: معتقداته وعباداته، وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وارتباطه بربه وسلوكياته. والحقيقة أن الإنسان يرسم حدود عالمه الحقيقي الذاتي بمقدار ما ينمي هذه الموهبة الأولى الموجِّهة.

وإن هذا الذي توجه وطمح إلى ذرى الحياة القلبية والروحية لهو على بصيرة من أمره؛ لذا فهو يعرف كيف يفكر ويتحرك ويعمل،

ومن أين يبدأ... فهو حساس في العبادات، ولديه استشعار عظيم بالأخلاق، وهو منفتح على المراقبة ومحاسبة النفس، ومنهمك في الشعور بالرهبة من الذنوب في مراقبة دائمة.

فمن استقر وتوطد شعوره وتفكيره بهذا القدر، فستكون الحياة بكل وحداتها بالنسبة له كأنها شلال وَجدَ مجراه، ينحدر موارًا أبداً ليبلغ البحر، وهو في هذا الشلال يعيش نشوة العشق والوصال أبداً. الإيمان -بمقدار توسعه وعمقه- مولّد الطاقة (الدّينامو) الأساسُ لإنسان الحركة هذا، والعبادة سنده ومحرّكه الحافظ، والأخلاق ومجموع العلاقات الإنسانية علامته الفارقة وفيصله المميِّز. والثقافة غدت سجية من سجاياه. والفن بدا انعكاسا لاستطلاعه وتفحصه وحدسه الداخلي ومشاهداته الباطنة.



وأستطرد لأذكر موضوعا ليس مكانه هنا... لكن أقول عن الفن الإسلامي إنه يحتوي رحاباً واسعةً خصوصيةً بتحرّيه "التنوع في فَلَك التجريد". فهو إذ يؤكد على التوحيد، يتخذ موقفاً بيناً ضد التشبيه والتجسيم.. وبحكمة إبقاء باب التأويل مفتوحاً أبدا، يريد أن يُرِيَ بحراً في قطرة، ويصورَ شمساً في ذرة، ويشرحَ كتاباً في كلمة واحدة. أما الثقافة الإسلامية المتشكلة بتأثير هذا الدينامو الرئيسِ وهذه المقوماتِ الأساسيةِ -ولا ننبش الآن عن مقولةِ أن الثقافة ميراث الإنسانية عموماً-، فهي منفتحة على كل الأنشطة الفكرية والذهنية المرتبطة بواقع الإنسان، وخلاصةٌ وعصارةٌ للخلطة المشتركة لتلك الأنشطة. ونحن نستشعرها بكل شيء يخصنا بأمسنا ويومنا، وبكامل حيويته، فنعيشه، ونطوره، ثم نودعه أمانة لدى الوجدان الاجتماعي، العارف المتأهل لما يُقدَّر ويوقَّر.

لذلك، فإن الواجب علينا اليوم هو أن نكافح من أجل الحفاظ على ذاتيتنا بالارتباط بمنظومتنا العقدية والفكرية والتوجه نحو ثقافتنا ونتاجها.. وأن نقوم بتحقيق ألوان جديدة من الفكر والعرفان -إذا اقتضى الأمر- فوق أطلسنا الفكري.

نعم، ينبغي أن نبذل قصارى جهدنا للالتزام بمصادرنا الذاتية أبداً، وأن نحصر الذهن في بلوغ البحر بمجرانا الذاتي، ونحرص على التطلع إلى الوجود من تحت قبة سمائنا، وقراءته ككتاب، وتفسيره إذ نقرؤه، واستنباط أفكار جديدة منه.

ومعلوم أن الإسلام منفتح على اقتباسِ ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى؛ فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض، ويطلبها أنّى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قوّمها وطوّرها وأودعها أمانة للأجيال الآتية، فاليوم أيضا يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينميه ويطوره -إن استطاع- ويُودعه أمانة للوارثين الجدد.

وكون الإنسان خليفة الله في الأرض يستوجب على المسلم أن يكون عاشقا للحقيقة وحريصا على العلم والتحري وشغوفا بالبحث. لكن ينبغي أن يتقي المؤمن ويحذر من الاتكاء على المصادر الأخرى في الأمور المتعلقة بالنظم العَقَدية والفكرية، والموضوعاتِ المرتبطة بالكتاب والسنة وبكل ما يتعلق بالرسول ﷺ وسيرته، وطرائقِ التحليل والبحث في السيرة وتاريخ الإسلام، والفن والأدب ونحوها... ذلك، لأن الذين أقاموا بنيانهم الفكري على معاداة الإسلام، والناظرين إلى الإسلام وكأنه خارج الوحي السماوي، لا يُرجى منهم التصرف بحسن النية وطلب الخير للمسلمين وتمنّي التقدم لهم. أما العلم والتكنولوجيا -وهما خارج إطار ما ذكرناه- فقد عهدناهما في أخذ وعطاء بين الأمم في الماضي، وستستمر المبادلة فيهما مستقبلاً، وتنتقل أمانة ووديعة في أيدي حائزيها. فالعلوم والتكنولوجيا ليست حكراً لدين أو أمة. لذلك، تستطيع كل أمة سليمة المشاعر والفكر والمعتقدات، ومنتصبة على ساقيها بثبات ورسوخ، أن تعتصر هذه العلوم الصرفة وتقطرها في روحها،

فتجعلها صوت قلبها ونَفَسَه، ووسيلةً توصل البشر إلى الله تعالى.

والمؤلم أن فلسفة العلم في أوروبا -وعلى نقيض المرونة في عالمنا الفكري- قد أوقعت الغرب كله في صراع دائم بين العلم والدين لأمور وأوضاع خصوصية، فخلّف ذلك انفصالاً بين العقل والقلب. هذا المشكل هو السبب الرئيس للمعضلات المتتابعة منذ عصور في النظم الغربية كلها. بل لقد تفاقمت الأزمة من مخاصمةِ جبهة العلم والفلسفة للدوغمائيات الكنسية، إلى مخاصمة "المفاهيم" الدينية كافة بمرور الزمان... فكأن العلم والفلسفة حامية ومدافعة عن الإلحاد. وقد أصاب -للأسف الشديد- الفكرَ الإسلاميَّ البريءَ شيءٌ من هذا العداء ضد الدين، إذ عُرِّض إلى أشنع ظلم وأبشع غبن، ووضع في قفص الاتهام مع الكنيسة التي هي المعنية في الأصل بهذه الخصومة.

انقلبت هذه الحركة المعادية لدوغمائيات الكنيسة، والقائمة أصلاً على حرية الفكر والعلم، إلى معاداة الله والدين والتدين... ثم إلى تحمس في أرجاء العالم كله لإسكات المتدينين وإحباطهم وتضييق الخناق عليهم، بل إزالتِهم من الوجود تماماً. ولم يكن للعالم الإسلامي مشكلة البتة مع العلم أو حرية الفكر، ولكنّ زمراً من أعداء الدين تغاضوا عن هذه الحقيقة الفارقة، واتخذوه غرضاً لمراميهم العدائية الدنيئة مقايسين له على المسيحية الكنسية...

والحال أن الإسلام كان -ولم يزل- يقدم للإنسانية جمعاء نظاماً للحياة جديداً وفريداً... نظاماً لا نظير له في الماضي، ويبدو رمزاً للمثالية والتفرد في الآتي. فهو قد نظَّم وينظِّمُ بأسسه حياةً جديدة لنوع البشر، ويضع تفسيراً جديداً لعوالم الدنيا وما بعد الدنيا، والعالم المادي وما وراءه، ويرتب -من جديد- الوشائج بين الإنسان والكائنات والباري ﷻ... يرتبها من وجهة خصوصيات الظواهر وبشكل مميز وفريد، ويقطع دابر النقائض في "الإلهيات"، وتستجيب القيمُ التي أوجدها بإشباع كامل ومُطَمْئِن لكل متطلبات البشرية حول الموت والحياة، ويسد كل الثغرات العقلية والمنطقية والفكرية والحسية في قلوب المخاطبين وعقولهم. كان الإسلام -وما يزال- حيويا وحركيا من كل وجهة... يتوسع وينبسط في واقع الحياة، ولم يؤجل النظر إلى أي مشكلة واجَهَتْه. يدخل إلى أضيق المعابر في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويجول في وحدات الحياة كلها بصوت العصر الذي هو فيه، ويلفت النظر في كل وحدة من وحداتها بصورة أشد إحكاماً من أحكم شيء واقعي.

ولم يكن الإسلام "أيديولوجية مثالية" بمعناها المعروف في الغرب، ومحال عليه أن يكون؛ لأن هذا المعنى كان شمساً خيالية بزغت في السهوب المجهولة خلف جبل "قاف".. شمس لا ينعكس شعاعها قط في واقع دنيانا المعيش، ولا يمكنها الظهور حتى في أصغر وحدات الحياة. فهي بأضوائها الكاذبة تصطدم بالخيال وتتكسر عليه كمثالية غير واقعية، وترنو إلى الحياة وحقائق الحياة الواقعية، من أفق بعيد كنوع من أنواع الأحلام اللذيذة(!) -ووصفُها باللذيذة يعود لمن يتأولها-.

أما الإسلام، فقد وعد -ويعِدُ- البشرية بنظام فريد في نوعه، قابلٍ للتنفيذ في كل مجال، مالكٍ لوسائل تحقيقه بديلة في التنفيذ. فيجد فيه الذين يلبون نداءه نشوةَ وتلوُّنَ وأداءَ نظام قد نما في رحم واحدة متوافقة مع طباعهم وجبلّتهم. فهو بسعة العِناية بكل شيء، ابتداءً من القبول المسبق في الوجدان إلى المسائل الأخلاقية في الحجرات النهائية للحياة، ومن أدق المسائل الفردية والعائلية إلى أعظم المعضلات الاجتماعية، يقدم حلولاً فريدة، ولا يخيّب رجاء المنتسب إليه مهما كان ضيّق الصدر أو قصير الشأو. الإسلام يبدأ بالعمل في الوجدان الفردي، وإذ يستقر فيه، يطفح منه بفائقيته الخاصة الذاتية، ويَفيض من محيطه وبيئته، ويجعل كل مكان حقل فسائل، فيصطبغ كل مكان بصبغة روحه، ويبدل أينما انتشرت جذوره لونَ الحياة وأداءها، ويُسمِع القلوب نداء الوجود الأبدي، وقد كان -ولا يزال- كل نداء منه ترنما للسلام العالمي، وتناغماً للانسجام الاجتماعي، ونَفَساً للتسامح والحوار. أما الصخب والوحشية والصلف والحقد والبغض، فهي من الغثيان المنعكس من البناء الروحي لخصومه في الخارج، وعسر هضم جهلة المنتسبين إليه. لكن هذا النور انكسف حينا بحائل من أحد خصومه، وانخسف أحيانا بتفريغ الفريقين معاً الظلمات فوقه.

ولو فتر العدو قليلا في الجفاء، وبذل الخليل قليلاً من الوفاء، لكان الإسلام قد محا وكنس أنواع الظلمات من الأرض مثل البغض والغيظ، بفَوَران "عن المركز" كالبراكين أو بحُزم الضياء من أطياف النور، ولجعل الأرض جنان اطمئنان تمتد حافاتها حتى تصل الجنة... ففي ظله يُنسى العراك والجريمة والإرهاب والاضطراب، وتُشمّ نسائم الحب والتوقير والانسجام والحبور في كل الأرجاء. وإن القلب الذي يتوطد فيه الإسلام، يمتلئ

بالحب والاهتمام والتسامح إزاء المخلوقات من أجل الخالق، والمصنوعات من أجل الصانع.

نعم، لن يجتمع في القلب إيمان وارتباط بالله مع الحقد والكره والغيظ. ولا يُحتمل مطلقاً أن يبقى بابُ القلب مفتوحا لتلقي العداوات خصوصا مع الحفاظ على جلاء روحه ورونقه بتجديد إيمانه وانتسابه للحق تعالى وميثاقه، كل يوم وأسبوع وعام، بأنواع العبادات. فإن كل تصرفاتنا الإسلامية تحفز فينا شعور التحرك المسلم، وتقودنا إلى الحياة الإيمانية. وبتواتر انعكاس مكتسباتنا الوجدانية وارداتنا القلبية على سلوكياتنا، تتكون خيوط أخلاقنا وتتلون بأبهى الألوان. وبدوام تدفقها من تصرفاتنا تتكون مرجعيات ثقافتنا، فتؤمّن لنا البقاء بذاتنا وشخصيتنا. وهكذا التكامل الإنساني المتوطد بالله والإيمان والاعتماد والاطمئنان في قلب الإنسان، يطفح إلى المحيط والبيئة حباً واهتماماً وإخلاصا ووداً، فيخرج الفرد المسلم من الفردية بفضل هذه الجاذبية القدسية التي يحوزها، فيكاد يكون أمة.

الإسلام يربط أحكامه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يبني الأحكام في دنيا الأحلام. الإسلام متواجد وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من المعتقدات إلى أنشطة الفن والثقافة.

إن الهمم الفكرية والتخطيطية والفنية تُولَد ابتداءً في ذات الإنسان، ثم تتشكل صورها، ثم تتوسع وتنبسط إذا وَجدت المناخَ الملائم للنمو والتطور. فكذلك أيضا العبادات والأخلاق والحياة الروحية والثقافة والعلاقات البشرية الأخرى كافة... يُستَشعَر بها بداية في عمق الإنسان إيمانا وإذعاناً، ثم تنمو لتحيط بالحياة كلاً، وتسربل بصبغتها التصرفاتِ البشريةَ كافة، فتكون مُعيِّنا ومُوَجِّها أساسيا لكل همة وحملة وحركة وفعالية، حاضراً بنفسه وبوجوده في كل الأحوال.

يتميز الإسلام عن النظم الدينية والفلسفية الأخرى قاطبة، بأنه رسم للإنسانية صورة فكرية وحياتية ذاتَ بُعد عالمي، لكن بسيماء خاصة به في الوقت عينه... وحمّل المنتسبين إليه مسؤوليةَ أن يجعلوه حياة يَحيونها وأمرا ينفذونه. ولذلك يسعى كل مسلم يعرف هذه الحقيقة لكي يتصرف ضمن إطارها في أعماله وعلاقاته الفردية والعائلية والاجتماعية، ويخطط لمستقبله وفقاً لهذا الفهم، ويستجمع همته ما استطاع وسنحت له الأحوال للإيفاء بحق هذه المسؤولية. ولا يخفى أن الأفكار والغايات المأمولة تبقى أحلاما وردية رفرافة، ما لم تؤيَّد بحملات وأفعال حركية لوضعها موضع التنفيذ بقدر ما تسع الأحوال... فإن قصّرنا، فسوف تستمر كمّاشة الواقع الفعلي تسحقنا بين فكيها.

ومن الحق أن حقيقة الإيمان المتأصلة في عالمنا الداخلي، إنما تديم وجودَها بقدر تناميها وتوسعها في الحياة الواقعية... فإذا بُذرت بذور الإيمان وترعرعت واخضرّت في القلوب، ثم تحولت إلى استقامة ووثوق في التصرفات، وانقلبت إلى وقار وخشوع في الصلاة، ورفدت وازعَ الحقانية والعدل في علاقاتنا الاجتماعية، فذلك يعني أن الأفق منبسط أمامه إلى اللانهاية للتطور والتوسع. وكما يكون إيمانٌ كهذا الإيمان في الإنسان مصدراً لا ينفد للقدرة والحيوية، كذلك يكون قاعدة ومنصة للارتقاء به باسم "خلافة الله في الأرض" إلى حق "التدخل في الأشياء"، وتشكيل صور البيئة المحيطة حسب مشاعره وأفكاره، والانفتاح على اللانهاية في محور التوحيد والتجريد بالملاحظات الجمالية والروح الفنية في طبيعتهما الذاتية. ذلك لأن الإيمان يوجد روحاً فنية مكينة في الأرواح المنفتحة على الجمال يدعو إلى العَجب والانبهار. نعم، إن الفنان المؤمن يصل إلى الماهية المجردة في منشور الوجود اللانهائي، ويرسم ألوان الأبدية، برقوش وخطوط عديدة على اللوحة بضربة فرشاة من غير تعب أو رهق... حتى إن الناظر يحسب نفسه أمام أنموذج نقش مصغَّر للوجود في كل تأمل في اللوحة الفنية، فتأخذه نشوة مطالعة اللانهاية في المعطيات المحدودة، والبحر في القطرة، والكائنات في الذرة، في عالم الخطوط السحري، ضمن تصور ملاحظات التوحيد والتجريد بلسان الفن.


ونحن لا نريد أن نفهم الفن الإسلامي بحصره في رفض موضوعات ذاتية أوموضوعية، أو إعلانا وإبرازاً للمهارات... بل تأليفاً -من جهة- بين الروح والمعنى والمحتوى فيما يشاهد من علائق الوجود والحوادث فيُستشعر، وما يتحسس منها فيفهم أو

ما يُتحسس وينبغي أن يُفهم، وبين لسان القلب والشعور والحس -من جهة أخرى-... فيتمكن -من ثم- أن يرشد على الدوام إلى الموجود الذي ليس كمثله شيء بالإيماء والإيحاء من مختلف المستويات والترتيبات -ولكن بلا حيدٍ عن خط مستقيم واحد تشير إليه بوصلة القبلة-، وفي مرونة تشعر بالحقيقة الواحدة الثابتة المطلوب فهمها -ولكن ببعد جديد مختلف في كل نظرة وتطلع-، فيشهر الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة بخطوط سحرية في هذا الإطار أو فيما يتجاوز هذا الإطار.

الحاصل أن الإسلام صوت كتاب الكائنات ونَفَسه وتفسيره وإيضاحه، كذلك هو رسم ماضي الكائنات وحاضرها ومستقبلها، وصورتُها وخارطتها، ومفتاح سرّيّ لأبوابها التي قد تظن أنها مغلقة. الإسلام "كلٌّ" يعبر عن هذه الأمور والشؤون جميعاً. "كلٌّ" يستحيل تَجَزّؤه، ويستحيل أن يُحمَّل جزؤه القيمَ المحمّلةَ على الكل. فإن تجزئته إلى أجزاء، ثم محاولة استنباط فهمٍ كامل وتام من الأجزاء، غلطٌ وخطل وإهانة لروحه. وسوف يبقى من يريد أن يفهمه أو يحصره في تفسير آيات وأحاديث معدودة بأسلوب وعظيّ، مهزوزَ الوجدان بأحاسيس نقص حقيقي، ومعانياً من خواء روحي دائم؛ مهما كدّ وسعى لسماع مجموعة الأنغام الرائعة هذه.

الإسلام إيمان، وعبادة، وأخلاق، ونظام يرفع القيم الإنسانية إلى الأعلى، وفكر، وعلم، وفن. وهو يتناول الحياة كلاً متكاملاً، فيفسرها، ويقوّمها بقيمه، ويقدم لمنتسبيه مائدة سماوية من غير نقص. وهو يفسر أداء الحياة دوماً ممتزجاً مع الواقع، ولا ينادي ألبتة بأحكامه في وديان الخيال بمعزل عن الحياة. يربط أحكامه وأوامره بمعطيات الحياة المعيشة وبإمكانية التطبيق، ولا يبني الأحكام في دنيا الأحلام. الإسلام متواجد وحركي في الحياة بكل مساحاتها، من المعتقدات إلى أنشطة الفن والثقافة... وذلك هو أهم الأمارات والأسس لحيويته وعالميته الأبدية. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.



الفرد والطبقة والأمة

أ.د. محمد عمارة *



الإسلام دين الجماعة. أي الأمة، تلك خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي.

وكون الأمة هي الجامعة الأساسية -في المنظور الإسلامي- لا يعني الإجحاف بحقوق "الفرد"، ولا الإنكار لوجود "الطبقة" -بالمعنى الاجتماعي- في إطار "الأمة"، وإنما هي العلاقات التي أقامتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين "الفرد" و"الطبقة" و"الأمة" على نحو متميز وفريد.

فالمسؤولية في الإسلام في الكثير من التكاليف، وفي الحساب والجزاء عليها مسؤولية فردية، نَقَل الإسلام بها هذا الفردَ من وضع الذوبان الكامل في إطار القبيلة والعشيرة، لكن هذا الإنسان الفرد هو مدني بالجبلة، اجتماعي بالطبع، يستحيل عليه أن يحيا فردا وفي حدود النزعة الفردية.

نسق التكاليف الدينية

والتكاليف في الإسلام منها الفردي (فروض العين) ومنها الاجتماعي (فروض الكفاية)، وهي جميعا ينتظمها نسق واحد، هو نسق التكاليف الدينية، والرباط بينها عضوي، حتى لَيستحيل على الفرد -بسبب من مدنيته واجتماعيته- أن ينهض بتكاليفه الفردية (فروض العين) إذا أصاب الخللُ النظامَ الاجتماعي بتخلف الفروض الاجتماعية. فإذا انعدم الأمن في المجتمع أو عزّ فيه القوت، فأنّى للعابد أن يعبد الله ويؤدي فرائضه العينية؟! لقد قال الفقهاء: إن صلاة الخائف والجائع لا تصلح؛ لأن الحضور فيها -وهو شرط إقامتها- لا يتأتى إلا بالأمن الاجتماعي وتوافر الأقوات. ولقد أصاب الإمام الغزالي عندما حدد الضرورات الاجتماعية التي يستحيل بدون توافرها إقامةُ الدين، فقال: "إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا؛ فنظام الدين بالمعرفة والعبادة، لا يُتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية. إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين.."[1] ولذلك كانت فروض الكفاية (الاجتماعية) في المنهج الإسلامي آكدَ من فروض العين (الفردية)، للارتباط

العضوي بينهما في النسق التكليفي الواحد، ولترتُّب التمكن من أداء كثــير من فروض العين على تحقيق كثير من فروض الكفاية.

مركزية دور الفرد

لكن تحقيق الفروض الاجتماعيـــة لا يغني عن ضرورة الفروض العينية؛ لأن مكانة الأمة والجماعة في التصور الإســـلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته، فالمسؤولية والتكليف والحساب والجزاء فردي، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الإســراء:١٥) في التكاليف الفردية، لكن البلوى الاجتماعية إذا عمت طالت من لا يد له فيها. ولذلك دعانا الله إلى اتقاء الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا دون سواهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَـــنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(الأنفال:٢٥). إن النهوض بالمسؤوليات والتكاليف الفردية هو السبيل إلى إقامة التكاليف الاجتماعيـــة.. كما أن إقامة التكاليف الاجتماعية هو الـــذي يهيئ للفرد الوفاءَ بحقوق تكاليفـــه العينية. وهذا الترابط بينهما هـــو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإســـلام.

الفرد لبنة كيان الأمة

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ صياغتها عند الماوردي عندما يقول: "واعلم أن صـــلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولهما: ما ينتظم به أمـــورُ جملتِها. والثاني: ما يصلح بـــه حال كل واحد من أهلها. فهما شـــيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه؛ لأن من صلحت حاله مع فســـاد الدنيا واختلال أمورها، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ويقدح فيه اختلالها؛ لأنه منها يَستمد ولها يستعد. ومَن فســـدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاســـتقامتها أثرا؛ لأن الإنســـان دنيا نفسه، فليس يَرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه؛ لأن نفسه أخص وحاله أمسّ، فصار نظره إلى ما يخصه مصروفا، وفكره على ما يمسه موقوفا.[٢]

فالفرد هو نقطة البدء، وهو بواسطة الأسرة والعشيرة يُعدّ لبنة في كيان الأمة، ولا مكان للفردية المغالية في المنهج الإسلامي؛ لأن صلاح اللبنة موقوف على كونها جزءاً من البناء الكبير.

الأمة في التصور الإسلامي

والأمة في التصور الإســـلامي ليست مجرد جمع "كمي" يساوي عدد الأفراد فيها، وإنما هي كيان جامع، له حالة (كيفية) جديدة تفوق كيفياتِ وقدراتِ أفرادهـــا متفرقين. إنها كيان متميز، له مـــا ليس للأفراد المتناثرين. إن الخيوط المتفرقة ليســـت لها القوة المتحصلة منها ذاتها إذا هـــي اجتمعت. وقطرات الماء المتفرقة لا تحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع. والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي ورجاحة العقل وكياســـة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع. ولذلك لم يَمنع جوازُ الضلال على كل فرد من أفراد الأمـــة، أن تكون لهذه الأمة العصمـــةُ عند الاجتماع والإجماع. ويشـــهد على هذه الحقيقة الموضوعية حديث رسول الله ﷺ: "إن الله وعـــدني في أمتي وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة" (رواه الدارمي).

فللأمة في الإسلام مقام فريد، يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم "الكمي" لما لدى أفرادها وآحادها. ولقد أبصر الماوردي وهو يتحدث عن مذاهب الأمم في "الشورى" كيف أن الحضارات التي مالت كفتها لحساب "الفرد" قد حبذت "الشورى الفردية"، بينما حبـــذت الحضارات التي مالت كفتها لحســـاب المجموع "شـــورى الاجتماع". ثم أضاف الجديد الذي تميزت به حضارة الإسلام وشـــوراه، عندما جمعت بين الاثنين (الفرد والمجموع) فقال: إن مذهب الإســـلام في "الشورى" هو الجمع بين "شورى الفرد" و"شـــورى الاجتماع"، فحيث تكون القضايا مما تحتاج إلى الاجتهاد وإعمالِ الفكر واســـتنباطِ الأدلة تكون شـــورى الانفراد؛ لأنها شورى الاجتهاد. وحيث يكون المراد هو الكشف عن ثمرات الاجتهاد الفردي، فإن الاجتماع والمواجهة (شـــورى الاجتماع) تكون هي الســـبيل القـــويم.[٣] فللارتباط بين الفرد والمجموع كان جمع الشورى الإسلامية بين نمطي شوراهما جميعا.

التمايز الطبقي

وكما أن دار الإســـلام تتألف من أوطان وأقاليم يجمعها جامع الإسلام: العقيدة والشريعة والحضارة؛ فكذلك أمة الإسلام تتألف من الشـــعوب والقبائل التي تعارفت بالإسلام وعليه، فغدت أمة الإسلام التي لا تمزّق وحدتَها التمايزاتُ القومية والعرقية والبيئية؛ لأنها تمايزات الواقع الذي لا يناقضه الإسلام، وإنما يهذبه فينظمه في نسق العقيدة الواحدة والحضارة الواحدة.

وإذا كانت مكانة الفرد في المنهج الإســـلامي قد شـــهدت بتميزها المسؤولية الفردية، والتكاليف الفردية.. وإذا كان القرآن الكريم قـــد أبرز مكانة الأمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُـــمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء:٩٢) ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣).. فإن المنهج الإســـلامي لا ينكر وجود "الطبقة" ولا التمايز الطبقي في إطار الأمة وفي داخلها؛ فالتفاوت الاجتماعي -بنظر الإســـلام- حقيقـــة من حقائق الواقع، نابعة مـــن تفاوت الحوافز والقدرات

والجهد المبذول والذكاء الذي يستخرج الثمرات.. والإسلام لا يقفز على حقائق الواقع ولا يتجاهلها ولا يعاديها، ولكنه يهذبها ويضبطها كي تظل في إطار "المشروع" ونطاق "العدل" الذي لا يعني المساواة التامة وإنما يعني "التوازن" بين فرقاء متفاوتين.. التوازن (الوسط) العدل، الذي ينكر الظلم ويقترب بالتفاوت إلى حيث درجة التوازن ولحظة العدل، التي يكون فيها التفاوت مؤسسا على ما هو ضروري ومشروع وطبيعي من العوامل والأسباب. ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾(النحل:٧١). فإذا تأسس التفاوت والتمايز الاجتماعي والاقتصادي على ما هو مشروع من الأسباب، وإذا أحدث هذا التفاوت تمايز الأمة إلى طبقات اجتماعية متميزة، فإن الإسلام لا يرى في وجود الطبقات إخلالا بالأمة، ولكنه كما أقام علاقات الترابط بين الفرد وبين الأمة، كذلك يهذب من حدود التمايز والتفاوت الطبقي ويضبط جموحه ويرسم آفاقه، على النحو الذي يجعل علاقات الطبقات الاجتماعية في لحظة التوازن ودرجته ومستواه؛ لأن هذا التوازن الذي يجمع بروابط التساند الطبقات المتعددة هو العدل الوسط في منهج الإسلام.

أما إذا اختل هذا التوازن الاجتماعي بين الطبقات في أمة الإسلام؛ فإن الخيوط الجامعة بين الطبقات تخلي مكانها لعوامل التناقض والصراع بين هذه الطبقات. وتلك هي الأخرى حقيقة موضوعية، وواقع اجتماعي، لاينكره المنهج الإسلامي ولا يستنكره ولا يتجاهله ولا يقفز عليه. لكنه يضع أيضا لهذا الصراع الضوابطَ، ويحدد له الغاياتِ والآفاقَ؛ فالهدف منه هو العودة بالعلاقات الطبقية إلى درجة التوازن ولحظة العدل الوسط. وليس الهدف منه أن يَنفي قطبٌ القطبَ الآخر تماما، وأن تُلغي طبقةٌ الطبقةَ النقيض كلية وتقتلعها من الوجود؛ فهذا المفهوم للصراع الطبقي هو خصيصة غربية، لأن لهم مفهومهم الخاص لآفاق حرية الطبقة في التمايز والامتياز.. وهي آفاق قد لا تعرف الحدود. فالبرجوازية سعت إلى نفي الإقطاع، والبروليتاريا سعت وتسعى إلى نفي البرجوازية. وما حديث "الشمولية-الشيوعية" عن المجتمع اللاطبقي إلا حديث عن المجتمع الذي تنفرد فيه طبقة واحدة بسلطات الفكر والحكم والمال.. لكنهم يكتشفون أن التمايز الطبقي الطبيعي حقيقة موضوعية من حقائق التوازن الاجتماعي (أي العدل الاجتماعي) وضرورة من ضروراته. فما ظنوه اقتلاعا للبرجوازية، لم يكن أكثر من استبدال الطرف الذي يتمتع بامتيازاتها؛ فبدلا من الملاك الرأسماليين حل "الحزب" و"التكنوقراط" (أي الدولة) التي امتلكت سلطات الفكر والحكم والمال بدلا من ملاكها السابقين. تغيرت الأسماء، ولم تلغ الطبقية في المجتمع الذي ظنوه لا طبقيا، حتى لَيتحدثون عن حاجة مجتمعهم هذا إلى ثورة لإزالة ما به من تناقضات.

الإسلام لا يتجاهل الواقع

لكن الإسلام الذي لا يقفز على الواقع ولا يتجاهل حقائقه -ومنها التمايز الطبقي النابع من التفاوت الاجتماعي الطبيعي- يجاهد لإبقاء هذا التفاوت في حدود الأسباب المشروعة، ويعمل على أن لا تتجاوز آفاقه لحظة التوازن، التي هي درجة العدل (الوسط).. فإذا تجاوز هذه الآفاق واختل التوازن وحل الظلم الاجتماعي محل العدل الاجتماعي، فلا حرج في الإسلام أن يشهد المجتمع دفعا طبقيا، بل لقد رآه الإسلام سنة من سنن الله في المجتمعات، تقود الظاهرة الاجتماعية من درجة الخلل ولحظة الظلم إلى درجة التوازن ولحظة العدل بين الطبقات؛ ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١)،[٤] و"من أريد ماله بغير حق فقاتل فَقُتِل فهو شهيد" (رواه الترمذي).

فهذا الدفع الاجتماعي الذي هو سنة من سنن الله في المجتمعات هو أداة العودة بالعلاقات -إذا هي خرجت من دائرة التمايز المشروع والطبيعي في الرابطة الجامعة إلى دائرة التناقضات العدائية والممزِّقة لجامع الأمة وتضامنها- هو أداة العودة بالعلاقات الطبقية من إطار الخلل والظلم إلى إطار التوازن والعدل؛ لتظل الأمة هي الجامعة، حاملة رسالة الإسلام: العقيدة والشريعة والحضارة. وليست الطبقة هي حاملة الرسالة البرجوازية -ورسالتها "الليبرالية-الرأسمالية"، والبروليتاريا -ورسالتها "الشمولية-الشيوعية".

علاقة الطبقة بالأمة

ثم إن هذا الموقف المتميز للمنهج الإسلامي من علاقة الطبقة بـ"الأمة"، هو الآخر مؤسس على مفهوم متميز لمعنى "الطبقة" في منهج الإسلام؛ فإذا كانت "الطبقة" هي الشريحة المتميزة اجتماعيا في إطار الشعب أو الأمة، وإذا كان هذا التعريف لها هو مما يمكن الاتفاق عليه في مختلف المذاهب والحضارات، فإن خلاف المنهج الإسلامي مع المناهج الغربية يأتي في العامل والمعيار الذي يميز هذه الشريحة فيجعلها طبقة اجتماعية متميزة عن غيرها من الطبقات.

ففي الحضارة الغربية نجد أن الوضع المادي (الاقتصادي) هو الأساس الأول والمعيار الأعظم في تمييز الطبقة اجتماعيا. وما نوع العمل في ذلك المنهج إلا سبيل لتحديد مستوى هذا الوضع المادي والاقتصادي.. أما في المنهج الإسلامي فإن معايير تمايز الطبقات

متعددة ومتنوعة، ولا تقف عند العامل المادي وحده. فنوع العمل ووظيفته في المجتمع ومكانته في الهيئة الاجتماعية يثمر تميز الطبقة اجتماعيا حتى مع غيبة التماثل المادي والاقتصادي داخلها، لأن شرف العمل أو وضاعته، وخطره أو ثانويته، تثمر رباطا يصنع ويميز الطبقة اجتماعيا عن غيرها من الطبقات، وابن الفلاح الذي ينفلت من طبقة الفلاحين مهنيا طبيبا أو مهندسا أو عالما أو رجل دولة أو قائدا عسكريا، إنما يدخل في طبقة اجتماعية جديدة تميزه اجتماعيا، حتى ولو لم يتجاوز ماديا المستوى الاقتصاديَ الذي يوجد عليه أبوه الفلاح، وحتى مع بقائه عضوا في أسرة فلاحية. فليس بالعامل المادي والاقتصادي وحده تتمايز الطبقات. كما أن هذا التمايز، لأنه في إطار الجامعة الأعظم جامعة الأمة، لا يعرف الفواصل الحادة، على النحو الذي عرفته الحضارة الغربية في العلاقات ما بين الطبقات.

مفهوم العدل في الإسلام

هكذا أقام المنهج الإسلامي ويقيم العلاقة بين الفرد والطبقة.. وبين الطبقات -في إطار الأمة- على النحو الذي يحقق فيه الكلُّ ذاته ورسالته، وعندما يكون التوازن والعدل والوسط هو ميدان الاجتماع والالتقاء. فإذا اختل الأمر كان الدفع الاجتماعي والجهادُ لإعادة العلاقات إلى صحتها، ونفيِ عوامل المرض وجراثيمه منها، وليس لينفي طرف من الأطراف الطرفَ الآخر حالماً بالانفراد والاستغناء. إن الاجتماع والاشتراك (الأمة) والتأليف والتساند بين الفرقاء المتميزين هو العدل.. أما الانفراد -من الفرد أو من الطبقة في السلطة السياسية أو بسلطان المال- فهو عين الظلم وذات الطغيان. وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧).

إن هناك حدا أدنى للعدل لابد أن يتوفر للفرد هو الإنصاف في القانون والحكم، والإنصاف في أمور المعاش. وفي كتاب عمر بن الخطاب ﷺ حول القضاء إلى أبي موسى الأشعري ﷺ، يقول: "وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسم".[٥]
هذا هو الحد الأدنى من العدل للفرد الضعيف في منهج الإسلام.

وفي العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب ﷺ إلى واليه على مصر (الأشتر النخعي) حديث عن التمايز الطبيعي والواقعي بين طبقات الأمة، وعن واجب الدولة الإسلامية حيال هذا الواقع الطبقي، وعن السبيل لإبقاء العلاقات في درجة التوازن ولحظة العدل. يقول الإمام علي ﷺ لواليه: "واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: جنود الله، ومنها: كُتّاب العامة والخاصة، ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمال الإنصاف والرفق، ومنها: أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها: التجار وأهل الصناعات. ومنها: الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة (أي العاجزون عن الكسب والتحصيل).. فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب. ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات".[٦]

فالمطلوب لتحقيق العدل ليس الصراع الذي تنفي فيه طبقةٌ بقيةَ الطبقات، بزعم أن العدل مرهون بالمجتمع اللاطبقي. وإنما العدل المطلوب سبيله إقامة التوازن بين الطبقات التي تُعد وظائفُها ضروراتٍ اجتماعية تحقق للمجتمع ثمرات من الكسب المادي والفكري، والكسبِ الحافظ على المجتمع قدرته وحركته ومنعته. لأن هذه الطبقات -كما يقول الإمام علي-: "لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض".

ولعل هذا التساند الطبقي، والارتفاق الذي لا غنى عنه بين الطبقات، لعله ان يكون التفسير الأدق لقول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف:٣٢). فالتمايز والتفاوت الطبقي والمحدد بأنه درجات، هدفه -وهذا هو المعنى المناسب لـ﴿سُخْرِيًّا﴾- هو التساند والارتفاق، وأن تكون كل طبقة هي للأخرى مرفق وسند وعماد. وليس المراد سخرة الاستعباد والإذلال التي هي عين الظلم الذي تَنَزه اللهُ عن فعله وعن إرادته للناس. فالطبيعة وظواهرها وقواها قد سخرها الله للإنسان يرتفق بها ويستعين على عمارة الأرض وتزيينها. وكذلك التمايز الطبقي ضرورة للتساند والارتفاق، عندما تكون العلاقات الطبقية في لحظة التوازن ودرجة العدل؛ لتكون الأمة بأدائها الاجتماعي كالفريق وكالجسد الواحد، الذي وإن تكن من أعضاء متمايزة إلا أن العلاقات والروابط الصحيحة بين أعضائه المتعددة تُحقق له -بتنمية الحوافز وإثارة الهمم- أداء موحدا لجسد واحد، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ولأن هذه هي "فلسفة الإسلام الاجتماعية" وجدنا القرآن الكريم يجعل "المال" مال الله ﷻ في ذات الوقت الذي يجعله مال الناس بحكم خلافتهم فيه عن الله، فلقد قال خالقه وواهبه لخلفائه فيه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(الحديد:٧). فجعل ملكية الرقبة الملكية الحقيقية له سبحانه، وجعل للإنسان

فيـــه ملكية المنفعة للملكية المجازية المحقّقة لمقاصد الاســتخلاف في هذه الأموال، وذلك حتى ينفتــح الباب -دائما وأبدا- أمام حركة الدفــع الاجتماعي وأنصار العدل الاجتماعي كي يعيدوا أوضـــاع الامتلاك والاختصاص والحيــازة في الأموال إلى درجة التـــوازن ولحظة العدل التي تنفي الخلـــل والظلم وتُحقق مقاصد الاســتخلاف. فإذا غدا المال ﴿دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ﴾(الحشر:٧) جاز -بل وجب- إعادة التوازن بين الفرقاء، بتأسيس التفاوت بينهم على المشروع من الأسباب والحلال من الثمرات.

وفي نطاق المستخلفين وجدنا القرآن الكريم يضيف مصطلح "المال" إلى ضمير "الجمع" في ســبع وأربعين آيــة ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ و﴿أَموَالَهُمْ﴾ وإلى ضمير الفرد في سبع آيات ﴿مَالَهُ﴾ ﴿مَالِيَهْ﴾، فلا ينفرد جانب دون الآخر بحق الاستخلاف.

ولعل في تأمـــل الآية الكريمة التي تشـــرّع لنوع العلاقة بين المستخلَف في المال وبين الله الذي استخلفه، ثم بينه وبين أصحاب الحقوق في هذا المال -وهي علاقة الواسطة والسبب بين الواهب وبين أصحاب الحقوق-.. لعل في تأمل الآية التي تشـرّع لذلك فتقول: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(النور:٣٣) ما يجســد هــذا المعنى الذي نلح على إبـــرازه. فالمال مال الله، وهو قد آتاه حائزةً ليؤتى منه أصحاب الحقوق. فالحائز "واســطة"، والحيازة وظيفة اجتماعية واقتصادية لمصلحة المجموع.

ثم لنتأمـــل صنيع عمر بن الخطاب ﷺ مــع الصحابي بلال بـــن الحارث ﷺ، و"الإقطاع" الذي أقطعه إياه رســـول الله ﷺ: لقد ســأل بلال الرسول أن يقطعه أرضا واســعة، فأقطعها له، وكان ذلك سبيلا لإحياء الارض الموات أو زراعة الأرض التي لا صاحب لها، ولكن بلالاً حجز هذه الأرض دون أن يزرعها بحجة أنه صاحبها يفعل فيها ما يريد. لكن عمر رأى أن في ذلك إخلالا بالتوازن والعدل الذي يجب أن يحكم علاقات الملكية والحيازة في الأموال كي لا تكون دولة بين الأغنياء، يحوزون أكثر مما يطيقون ويحتاجون، بينما لا يجد الآخرون ما يحتاجون. فأراد عمر العودة بهذه العلاقة بين بلال والأرض من درجة الخلل إلى درجة التوازن والعدل، وذلك بأن تقتصر حيازتـــه على ما يطيق زراعته، وأن يعطى الزائد لمن يحييه ويســـتثمره. ولما جادل بلال في ذلك قسره عليه عمر، بل وسَـــنّ قانونا ينظم أمر هذه الإقطاعات، ويَضمن إعادة العلاقة بالأموال -إذا هي اختلت- من درجة الظلم والخلل إلى درجة العدل والاتزان.

لنتأمل صنيع عمر هذا من خلال كلمات الحوار الذي دار عنيفا بينه وبين بلال ابن الحارث ﷺ، والذي بدأه عمر ﷺ فقال لبلال: إنك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة، فقطعها لك. وإن رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئا يُسأله، وأنت لا تطيق ما في يدك.

- أجل.

- فانظر ما قويت عليه فأمسكه، وما لم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين.

- لا.. لا أفعل، هذا شيء أقطعنيه رسول الله.

- إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورُد الباقي.

- لا أفعل.

- والله لتفعلن.

وأخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسمه بين الناس. ثم خطب الناس: "من أحيا أرضا ميتة فهي له.. ومن عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له".[٧]

فنحن هنا أمام تطبيق خلّاق لفلســـفة الإسلام في استخلاف الناس في الأموال عن الله، وتحديــد آفاق ملكيتهم وحيازتهم لها بحدود عهد الاستخلاف. وأمام تجسيد لمذهب الإسلام في الإقرار بالتمايز الاجتماعي والطبقي، مع الحرص على أن تكون علاقات المتمايزين طبقيا عند لحظة التوازن والعدل (الوسط). فإذا حدث الخلل والظلم عاد المنهج الإســـلامي بهذه العلاقات -كما صنع عمر مع بلال بن الحــارث- إلى درجة التوازن والعدل. فهو لم يلـــغ حيازة بلال للأرض إلغاء كاملا، وإنما وقف بها عند حدود التوازن العادل. "خذ منها مـــا قدرت على عمارته، ورد الباقي إلينا نقسمه بين المسلمين".

هنا تنشأ وتصح العلاقات بين الفرد، والطبقة، والأمة، وتظل الوسطية الإســلامية الجامعة المعيار الذي يرشّد هذه العلاقات، ويضمن لها البقاء في درجة التوازن ولحظة العدل، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "الوســـط: العدل، ﴿وَكَذَلِــكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)" (رواه أحمد).■

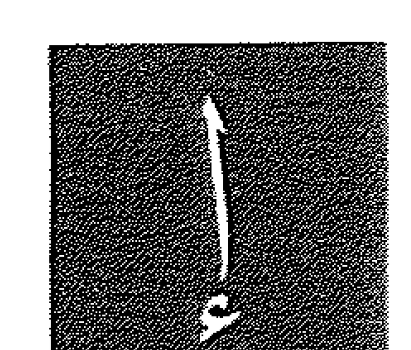
(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، مطبعة صبيح، القاهرة، ضمن مجموعة، بدون تاريخ.
(٢) أدب الدنيــا والدين، للماوردي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص: ١٣٤.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص: ٢٩٣.
(٤) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْــمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠).
(٥) تاريخ الطبري، لابن جرير الطبري، دار المعارف، القاهرة، ٤/ ٢٠٣
(٦) نهــج البلاغــة، للإمام علي بــن أبي طالب، دار الشــعب، القاهــرة، ص: ٣٣٧.
(٧) الخراج ليحيى بن آدم طبعة القاهرة، ١٣٧٤م، ص: ٩١-٩٣؛ الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، طبعة الشروق، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ٣٨٢-٣٨٤.

منهجية الاستمداد التكاملي لمعارف الوحي

أ.د. سعيد شبار *



إن التفريق في الاستمداد بين مصادر المعرفة (نصا وعقلا وواقعا) باعتماد بعضها دون الآخر ينتج على الفور نزعات فكرية أكثر مما ينتج معرفة متكاملة. وهذا سبب من أسباب الفرقة والخلاف والنزاع بين طوائف وتيارات الفكر الإسلامي ذات النزوع النصي الحرفي، أوالعقلاني الصرف أو الدهري الواقعي جدا، ومثلها الباطني الغالي وهكذا. فالأصل في المعرفة أن تنال حظا من هدايةِ وإرشاد الوحي، وحظا من اجتهادِ ونور العقل، وحظا من حاجاتٍ ونوازل العصر والواقع. تلك وَحْدها المعرفة القابلة للاستمرار والمقبولة عند ذوي العقول والفطر السليمة.

نجد العلامة النورسي رحمه الله يدافع عن هذا الاختيار التكاملي بين مصادر المعرفة، باعتباره موحّدا لفكر الأمة من جهة، ومحققا شرطَ كسبها الاجتهادي لزمانها من جهة أخرى، ومحققا لثمرات وجودها الواقعي من جهة ثالثة. يقول -رحمه الله- معبرا عن امتزاج نظره العقلي بيقينه القلبي ومشهودات الواقع الحسي: "اعلم أن عقلي قد يرافق قلبي في سيره، فيعطي القلبُ مشهوده الذوقي ليد العقل، فيبرزه العقل على عادته في صورة المبرهَن التمثيلي". لذا فهو يرى "أن أعظم سببٍ سَلَب منا الراحةَ في الدنيا وحَرَمَ الأجانبَ من سعادة الآخرة وحجب شمسَ الإسلام وكَسفَها، هو سوء الفهم وتَوهُّم مناقضةِ الإسلام ومخالفتهِ لحقائق العلوم. فيا للعجب كيف يكون العبد عدو سيده، والخادمُ خصم رئيسه، وكيف يعارض الابن والده! فالإسلام سيد العلوم ومرشدها ورئيس العلوم الحقة ووالدها".

فالإنسان -حسب النورسي رحمه الله- مزود بقدرات مهمة وإن لم تكن نهائية، وتوظيفُها بتوازنٍ في النظر والاستنباط للتحقق بواجباتٍ وتكاليفِ الدين هو المطلوب، إذ الإنسان مسؤول عن كل أجهزته وموازينه المنعَم بها عليه من فاطره، والتي تحيله على عوالمَ لا متناهية في التعرف على خالقه وعلى نفسه وعلى الكون المحيط به، كما يدل على ذلك صريح الآية ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

ولهذا كما كان النورسي رحمه الله مدمن النظر في آيات النص المسطور، كان كذلك في آيات الكون المنظور. وكما يقول عنه تلامذته كان دائم المطالعة والقراءة لكتاب الكون، له تعامل خاص مع سائر المخلوقات والموجودات. وكان يسألهم: "أتقرؤون كما

أقرأ؟". يقول في "الآية الكبرى": "مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه" في بيان قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). "إن آيات كثيرة في القرآن الكريم -أمثال هذه الآية العظمى- تَذكر في مقدمة تعريفها لخالق هذا الكون "السماواتِ" التي هي أسطع صحيفة للتوحيد، بحيث ما يتأمل فيها متأمل إلا تغمره الحيرة ويغشاه الإعجاب فيستمتع بمطالعتها بكل ذوق ولذة".

ولا يخفى أن الجمع بين القراءتين محدد منهاجي أساس في التعامل مع آيات الكتابين فهمًا واستنباطا وتعرفا واستكشافا، باعتبارها دلائل متجانسة متناسقة على الخالق سبحانه. وعلى امتداد رسائل النور نجد الشواهد حاضرة وقوية من الكتابين معا وهو ما أضفى عليها خصوصية الجدة والتفرد والإقبال الكبير.

مَلاحظ منهجية

وللنورسي رحمه الله ملاحظ منهجية كثيرة من خلال القرآن الكريم تمهد السبيل أمام هذا الضرب الجامع من القراءة، نذكر منها مسألة مهمة جدا تتعلق بهيمنة الجزئي على الكلي، والفروع على الأصول، والحاجيات على الضروريات؛ إذ بذلك تشعبت الآراء واختلفت وتمايزت وتعددت حتى لا تكاد تلمس بينها أصلا ناظما يوحدها. ومن هنا كان إلحاحه على الانتباه إلى القرآن الكريم في عرضه للأصول وللكليات الشاهدة والمسدِّدة لحركية الفروع والجزئيات الضابطة لتغيرها وتبدلها زمانا ومكانا؛ فـ"إن هناك خطرا عظيما في مزج الضروريات الدينية مع المسائل الجزئية والفرعية والخلافية وجعلها كأنها تابعة لها". ولهذا يرى أنه "لو كان قد بُيّن القرآن الكريم ضمن بيان الضروريات الدينية مباشرة، لكان الذهن ينتقل انتقالا طبيعيا إلى قدسيته ولأثارت الشوق إلى الاتباع ولنبهت الوجدان إلى الاقتداء، وعندها تنمو ملكة رهافة المشاعر لدى المخاطب بدلا من صممها أمام حوافز الإيمان وموقظاته". وعلى الكتب الفقهية في هذا السياق: "أن تكون شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبحَ حجابا دونه كما آلت إليه بمرور الزمان -من جراء بعض المقلدين- وعندئذ تجدها تفسيرا بين يدي القرآن وليست مصنفات قائمة بذاتها".

وهذه ملاحظة منهجية مهمة توضح أمرين أساسين:

١-كون كتب الفقه والتفسير وغيرها من الكتب الدائرة حول القرآن الكريم يجب أن تكون شفافة؛ معناه أن تنعكس فيها وعليها حقائق القرآن وخصائصه، وأن لا تحجب شيئا من ذلك فتبرز أجزاء دون أخرى. وهذا ما حدث للأسف، إذ نجد الأحكام المستنبطة من القرآن ما هي إلا جزء يسير منه، فلم يُنظر إلى كون كل آية فيه حُكم وحكمة ودلالة واعتبار وتصديق وإيمان.. ولهذا لم تتبلور أحكامُ علوم كثيرة أخرى أهمها علوم الإنسان وعلوم العمران رغم حضورهما القوي في القرآن الكريم، بل نُظر إليها وكأنها شيء آخر خارج نطاق الإيمان والأحكام بل والقرآن.

٢-الشفافية تقتضي ألا يتحول الفرع المبيِّن إلى أصل متَّبع بدل الأصل، بل ينبغي أن يكون دالا على عليه كاشفا عن مكنونه ومحيلا قارئه عليه.

يوضح النورسي منهجية القرآن الكريم أكثر في عرض هذه الحقائق التي ينبغي أن تكون دليلا مساعدا للمستنبِط والمستمد من القرآن عموما، بالشكل الذي لا يقرأ به هذا الكتاب قراءة عضين، فتبقى أصول المعرفة مهيمنة على فروعها ويبقى أصل الوحدة ضابطا لمظاهر التجزيء بقوله: "اعلم أن من مزيات القرآن إيرادَ مذكرات الوحدة خلف مباحث الكثرة، والإجمال عقيب التفصيل، وترديفَ بحث الجزئيات بدساتير الربوبية المطلقة ونواميس الصفات الكمالية العامة الشاملة، بذكر فذلكات كالنتائج والتعديلات في آخر الآيات، لأجل ألا يتغلغل ذهنُ السامع في ذلك الجزء المذكور، فينسى "عظمة مرتبة الألوهية المطلقة" حتى يخل بلوازم آداب العبودية الفكرية لذي العظمة والهيبة والكبرياء. وكذا ليبسط ذهنك من ذلك الجزئي إلى أمثاله وأشباهه. وكذا يريك القرآن بهذا الأسلوب ويفهمك أن في كل جزئي -ولو حقيرا وزائلا- سبيلا واضحا وصراطا مستقيما ومحجة بيضاء إلى معرفة سلطان الأزل والأبد وإلى شهود صلوات أسماء الأحد والصمد".

تكامل العلوم وانتظامها المنهجي في الوحي

وهذا المبحث فرع تابع للمبحث السالف لأنه بتكامل مصادر المعرفة تتكامل العلوم والمعارف، إذ لكل مصدرٍ علومٌ تنبثق عنه وتدور حوله بيانا وتوضيحا وبناءً وتأسيسا، والأصل فيها التداخل والتكامل، لوحدة الغاية والمصدر، وليس التقابل والتنافر والانحباس في دوائر خاصة لا تطل على غيرها ولا تتواصل معها. وهذا الذي حدث تاريخيا -كما ألمحنا سلفا- من حيث التأطر في المذاهب والفرق والطوائف، إنما هو من التحيزات والأفهام الخاصة التي

جعلت كل طائفة تستقل عن الأخرى دون القدرة على التكامل معها. وكان لعامل تصنيف العلوم وتمييز بعضها عن بعض -تسهيلا لتلقينها والتعرف على أحكامها- أثر كذلك في هذا الانقطاع. إذ تَحول هذا الاعتبار المنهجي إلى واقع موضوعي يصعب الانفكاك عنه بالممارسة والتداول التاريخي، خصوصا بين العلوم المسماة "عقلية ونقلية"، "عبادية وعادية"، "حكمة وشريعة".. وتطور هذا التمييز ليأخذ أشكالا أخرى في فكرنا الحديث والمعاصر في ثنائيات من قبيل: "حديث/قديم"، "ديني/مدني"، "شرعي/عقلي"، "أصيل/معاصر".. وكأنه لا علاقة لأحدها بالآخر.

أدرك النورسي -رحمه الله- هذا الواقع، ولهذا سعى جاهدا ومجاهدا إلى الدعوة إلى بناء جامعة على غرار الأزهر، يكون لها من السمعة والإشعاع والتكوين والتعليم في القارة الآسيوية، ما له في مصر والقارة الإفريقية. جامعة كما يقول: "تتصافح فيها العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين، وتتصالح الحضارة الأوربية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة، وتتفق المدارس الحديثة وتتعاون مع المدارس الشرعية". مدرسة يتم فيها "مزج العلوم الكونية الحديثة ودرجها مع العلوم الدينية؛ [فـ]ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة فتتربى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية".

وبهذا تتكامل دوائر العلوم الحديثة وتثمر، كما يصبح محصِّلها متحققا بالعلم والمعرفة على حقيقتها وليس بصور متوهمة منها. كما يكون التعرف على الخالق أكمل والارتباط به أوثق، من خلال الحبال المتعددة الممدودة إلى أصل واحد، وهو قانون سنني سارٍ في الكون، مَن أخذ به قام ومن أهمله نام.

وبخصوص تكامل العلوم وإمكان استيعابها فهو يقرر من جهة "أن علوما كثيرة تتزاحم في كتاب واحد، فبسبب تعانقها وتجاوبها بإمداد بعضها بعضا وإنتاجِ بعضها بعضا يحصل تشابك إلى حد كبير، بحيث لا تكون نسبةُ مسائل العلم الذي ألف الكتاب فيه إلا زكاةَ محتواه". ويقرر من جهة أخرى أن: "من الحقائق التاريخية، أن الشخص الواحد لا يستطيع أن يتخصص في أربعة أو خمسة من العلوم ويكون صاحب ملكة فيها"، وإنما "[يتخذ] المرء أحد العلوم أساسا وأصلا و[يـ]جعل سائر معلوماته حوضا تخزن فيه". فـ"كما لا تشتري لوازم البيت المتنوعة من صَنَّاع واحد فقط، بل يجب مراجعة المتخصص في صنعة كل حاجة من الحاجات، كذلك لابد من توفيق الأعمال والحركات مع ذلك القانون الشامخ بالكمالات (قانون الفطرة)، أَلاَ يشاهَد أن من انكسرت ساعته، إذا راجع خياطا لخياطتها فلا يقابل إلا بالهزء والاستخفاف".

لا يخفى أن من أهم الحوافز المساعدة على عمق وسعة الاستمداد الإيمانُ بقدسية الكتاب وكونه بلسما شافيا، والإيمان بأن النظر فيه تدبرا وتفكرا تكليف شرعي كسائر التكاليف تترتب عليه جزاءات.

أكثر من هذا، نجد عند النورسي رحمه الله تفاؤلا كبيرا بخصوص هذه العودة المحمودة إلى هذا الأصل التكاملي، إذ يراه انتصارا للحق وبرهانا عليه وسبيلا من سبل عودته للظهور. يقول: "ولما كان المهيمن هو الحق والبرهان والعقل والشورى في خير القرون وعصور السلف الصالح، لم يكن للشكوك والشبهات موضع. كذلك نرى بفضل انتشار العلوم في الوقت الحاضر وهيمنتها بصورة عامة، وفي المستقبل هيمنةً تامةً إن شاء الله ﷻ، سيكون المهيمن هو الحق بدلا من القوة، والبرهان بدلا من الطبع، والهدى بدلا من الهوى"، فـ"من محاسن سلطان الفكر أن تخلصت شمس الإسلام مما كان يحجبها من غيوم الأوهام والخيالات. بل أخذت كل حقيقة منها بنشر نورها، حتى المتعفنين في مستنقع الإلحاد أخذوا يستفيدون من ذلك النور". و"ما جعل الإسلامَ يتجلى دوما وتنكشف حقائقه وتنبسط بنسبة انبساط أفكار البشر، إلا تأسُّسُه على الحقيقة وتقلدُه البرهانَ ومشاورته العقلَ واعتلاؤه عرش الحقيقة ومطابقتُه دساتيرَ الحكمة المتسلسلة من الأزل إلى الأبد ومحاكاتُه لها. أفلا يشاهَد كيف يحيل القرآن الكريم في فواتح أكثر الآيات وخواتمها البشرَ إلى مراجعة الوجدان واستشارةِ العقل بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾(الغاشية:١٧)".

استثارة الجوانب المكنونة في النص

لا يخفى أن ثمة خللا كبيرا في قضية استمداد الأحكام من الوحي، إذ نُظِر إلى الأحكام من خلال دائرة ضيقة، لا تكاد تتجاوز قضايا المكلف الفرد والجماعة. ولهذا نُظر إلى آيات الأحكام منحصرة في بضع مئات على الأكثر (حوالي ٥٠٠)، أو في بضع عشرات على الأقل (حوالي ٨٠). وما تبقى من القرآن هو للأخبار والوعظ والتذكير.. إلخ. في حين أن كل آية هي حُكْمٌ ناطق وحكمة بالغة ووعظ واعتبار وهداية وإرشاد.. سواء كانت حكما تكليفيا مباشرا أو خبرا اعتباريا أو غير ذلك.

تبتدئ المسألة عند النورسي باستعداد القارئ نفسه وقوة إرادته وعزيمته في النظر والاستمداد. أي أن ينظر كل في مجال اختصاصه وأهليته حيث بإمكانه الإبداع والعطاء. فعنده أنّ "ترك المستعد لما هو أهل للقيام به وتشبثَه بما ليس أهلا له، عصيانٌ كبير وخرقٌ فاضح لطاعة الشريعة الكونية (شريعة الخلقة)، إذ من شأن هذه الشريعة انتشار استعداد الإنسان ونفوذ قابليته في الصنعة واحترام مقاييس الصنعة ومحبتها وامتثال نواميسها والتمثل بها".

توسيع دائرة الاستمداد

وفي توسيع دائرة الاستمداد والنظر في القرآن الكريم وأهلية الإنسان لاستثارة جوانبه المختلفة يقول: "إن في القرآن الحكيم حوادث جزئية، لكن وراء كل حادث يكمن دستور كلي عظيم، وإنما تذكر تلك الحوادث لأنه طرف من قانون عام شامل كلي وجزء منه. فالآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١) تبين أن الأسماء معجزة من معجزات سيدنا آدم عليه السلام تجاه الملائكة إظهارا لاستعداده للخلافة. وهي وإن كانت حادثة جزئية إلا أنها طَرَف لدستور كلي وهو: أن تعليم الإنسان -المالك لاستعداد جامع- علوما كثيرة لا تحد، وفنونا كثيرة لا تحصى، حتى تستغرق أنواعَ الكائنات، فضلا عن تعليمه المعارف الكثيرة الشاملة لصفات الخالق الكريم سبحانه وشؤونه الحكيمة.. إن هذا التعليم هو الذي أهّل الإنسان لينال أفضليةً، ليس على الملائكة وحدهم، بل أيضا على السموات والأرض والجبال في حمل الأمانة الكبرى".

فالنظر إلى القرآن إذن نظر كلي مستوعب وإن تعددت الجزئيات، يطول كلَّ الكائنات ويستوعبها، يؤسس لكل العلوم ويرشدها، يعرّف بالخالق ويُظهر جليلَ وجميلَ صنعته. يضيف في هذا الاتجاه موضّحا: "أن في كل مصنوع وجهين: وجه ينظر إلى ذاته وصفاته الذاتية، ووجه ينظر إلى صانعه وإلى ما تجلى إليه من أسماء فاطره. والوجه الثاني أوسع مجالا وأكمل مآلا، إذ إن كل حرف من كتاب يدل على نفسه بمقدار حرف وبوجه واحد، ويدل على كاتبه بوجوه كثيرة، ويعرف كاتبه ويصفه للناظر بمقدار كلمات كثيرة.. كذلك إن كل مصنوع الذي هو حرف من كتاب القدرة، يدل على وجوده ونفسه بمقدار جرمه وبوجه واحد هو وجوده الصوري. لكن يدل على نقّاشه الأزلي بوجوه متنوعة كثيرة، وينشد من أسمائه المتجلية على ذلك المصنوع بمقدار قصيدة طويلة (...) فمن هذا السر تَرى كتب الفلاسفة أحكمَ فيما يعود إلى الكائنات في أنفسها، مع أنها أوهن من بيت العنكبوت فيما يعود إليها بالنسبة إلى صانعها. وكلام المتكلمين مثلا لا ينظر إلى المسائل الفلسفية والعلوم الكونية إلا بالمعنى الحرفي التبعي والاستطرادي للاستدلال فقط".

فالقرآن الكريم عند النورسي "خطاب إلهي شامل لجميع طبقات الجن والإنس ولكل العصور والأحوال والظروف كافة". و"ذكرُ القرآن لبعض الغايات الراجعة إلى الإنسان إنما هو للإخطار لا للانحصار، أي لتوجيه نظره إلى الدقة في فوائد نظام ذلك الشيء ذي الغاية في انتظامه الدال على أسماء صانعه، إذ الإنسان إنما يهتم بما له علاقة ما به، فيرجّح ذرة ما إليه على شمس ليست إليه؛ مثلا في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾(يس:٣٩)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(يونس:٥)، هذه غاية من ألوف غايات تقدير القمر وليس المراد الانحصار. أي إنما خلق ذلك لهذا. بل إن هذا هو المشهود لكم من ثمرات ذلك".

فالقرآن المجيد إذن معطاء عطاءً غير مجذوذ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، يحيل الجزء منه على الكل، والكل على الجزء في علاقة نسقية بديعة. وإنما يتطرق القصور والإهمال من جهة نسبيةِ ومحدوديةِ النظر الإنسانيّ، خصوصا إذا عمد هذا الناظر إلى وضع سياجات وحدود حول النص لا تسمح بأن يفهم منه إلا ما فهمه هو. فبدلَ أن يبقى النص رسالة مفتوحة للعالمين تستوعب الزمان والمكان، تتحول بأفهام قاصرة إلى دوائر مغلقة لا تكاد تعبر عن آراء طائفة من الناس. وقد كان النورسي -رحمه الله- شديد النكير على هذا الصنف من المضيّقين واسعا والمعترضين على غيرهم بما فهموه.

كما يُرجع النورسي هذا الإهمال لشمول الأحكام في الفقه إلى الاهتمام بالقضايا الفرعية والخلافية وتركِ الأركان والكليات التي هي الأعمدة والأصول. وهو تنبيه منه -رحمه الله- إلى أن

الرجوع إلى العزة والمنعة، ومقومات النهضة والتوحد في الأمة، إنما يكون بالاستمساك بالأصول والأركان وجَعْلها مدارَ حركة الإنسان والعمران، بدلَ الإيغال في الفروع والجزئيات غيرِ المنضبطة إلى ضابط أصل يستوعبها ويرشد حركتها. فالجزئية الشاردة عن مجموعتها كالجندي الشارد عن فريقه، كلاهما خارج نظام العمل الجماعي النسقي المتكامل.

يلفت النورسي كذلك النظر إلى مسألةٍ غاية في الأهمية بخصوص علاقة الإنسان بالقرآن وهي قدسية هذا الكتاب الحاملةُ على الانقياد له، فـ"الذي يسوق جمهور الناس إلى الاتباع وامتثالِ الأوامر هو ما يتحلى به المصدر من قدسية، هذه القدسية هي التي تدفع جمهور الناس إلى الانقياد أكثر من قوة البرهان ومتانة الحجة".

خلاصة

نخلص مما تقدم إلى أن منهج الاستمداد من الوحي منهج تتكامل وتتداخل فيه عناصر متعددة، على رأسها التزود بالعلوم المساعدة، وعلى رأسها -كما قال الشاطبي مختصرا من غير تطويل- العلم باللغة العربية وبمقاصد الشريعة، لكنه يحتاج مع ذلك إلى إخلاص ونية وتجرد، وإقبال بمشكلات وهموم التماسا لحلولها، وبحث عن المكنون وامتداداته. كما لا يخفى أن من أهم الحوافز المساعدة على عمق وسعة الاستمداد الإيمانُ بقدسية الكتاب وكونه بلسما شافيا، والإيمان بأن النظر فيه تدبرا وتفكرا تكليف شرعي كسائر التكاليف تترتب عليه جزاءات. ففي القرآن الكريم معالمُ منهاج استمدادي متكامل هو الذي درجت عليه السنة النبوية في بيانها، وكان عليه الصدر الأول. لكن ما جاء بعد من تراكم في العلوم والمعارف الدائرة حول هذا الأصل، وإن شكلت إبداعا متفردا للأمة بين سائر الأمم، فإنها -أو جانب منها على الأقل- شكّل عوائق وموانع حالت دون استمرار الاستمداد على منهاج القرآن والسنة. وهذا الذي حاولنا فيما تقدم الكشف عن بعض جوانبه، باعتبارها مشكلات تحتاج إلى مراجعة وإعادة بناء. سواء تعلق الأمر بمصادر المعرفة في تكاملها، أو تكاملِ دوائر العلوم وإمساكِ بعضها ببعض وارتباطِها بالأصل، بما يحقق أصل الوحدة والتوحد على مستوى الفكر والثقافة ويدرأ آفة الجزئية والتجزيء فيهما، التي طالت واقع الأمة الاجتماعي والسياسي كذلك. ■

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب، بني ملال / المغرب.

المصادر

(١) كليات رسائل النور، لبديع سعيد النورسي. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، الأجزاء: ١- الكلمات، ٤- الشعاعات، ٦- المثنوي العربي النوري، ٨- صيقل الإسلام، ٩- سيرة ذاتية.



الايمان وجيب قلب، وهزّة جنان، وعقيدة في تلافيف دماغ، وإقرار باللسان، ومعرفة بالله وقرآنه، ورسوله وسنته... مرآته العبادات، على الجوارح تنعكس، وفي الضمائر تستقر...

* * *



سكة حديد الحجاز

صالح كولن *

قبل قرن كامل مضى، وبالتحديد عام ١٩٠٨م، كانت القطارات البخارية تنطلق من محطة قطار "حيدر باشا" بإسطنبول إلى المدينة المنورة، معلنة أن حلماً صعب المنال قد أضحى حقيقة تدركها الأبصار والأسماع.

فقد كان الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م، هو يوم اكتمال خط حديد الحجاز وانطلاق رحلته الأولى بعد ثمانية أعوام من عمل شاق متواصل أسفر عن خط سكة حديدية تجاوز طوله ١٤٠٠ كم. فاستحال به خريف عام ١٩٠٨م -مع ما فيه من الأزمات والمشكلات- مسرحا تزاحمت فيه آمال المسلمين وطموحاهم في شتى ربوع الأرض مستبشرين ببعث جديد. وأضحى حلم مشاهدة سحب الدخان الكثيفة وهي تنبعث من القطار البخاري المنطلق من إسطنبول إلى الأراضي الحجازية، حقيقة قد تجسدت على أرض الواقع بعد أن كان ضربا من الخيال.

فكرة المشروع

عُرف خط حديد الحجاز في السجلات العثمانية باسم "خط شمندفر الحجاز"، أو "خط حديد الحجاز الحميدي"، وامتد بين الشام (دمشق) والمدينة المنورة. حيث ينطلق الخط من الشام ماراً بعمّان ومعان ثم بتبوك ومدائن صالح وصولا إلى المدينة المنورة. وكان في خطة المشروع الحجازي أن يمتد بعد ذلك إلى مكة المكرمة ومن هناك إلى جدة، بيد أن أياً من ذلك لم يتحقق.

وإن تكن فكرة إنشاء الخط الحجازي قد طُرحت أول ما طُرحت في عهد السلطان عبد العزيز، إلا أنها تحققت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. ولما كانت جهود السلطان عبد الحميد الثاني منصبة على العمل من أجل إيقاف تمزق الدولة العثمانية وانهيارها أو تعطيله على الأقل، فقد أخذ على عاتقه إنجاز مشروع الخط الحجازي.

أوكل السلطان عبد الحميد الثاني مهمة تنفيذ هذا المشروع العملاق لـ"أحمد عزت باشا العابد" والمعروف في التاريخ باسم "عزت باشا العربي". ويتضمن المشروع، إنشاء خط سكة حديد الحجاز ليربط بين خط سكة حديد الأناضول وخط سكة حديد بغداد، وكذلك تأسيس شبكة اتصال تلغرافية بمحاذاة ذلك الخط الحديدي؛ حيث كان السلطان عبد الحميد الثاني يؤمن بأن هذا سيحقق له سهولة وسرعة في عمليات الاتصال والمتابعة بين مركز الدولة العثمانية وولاياتها في الشام والحجاز.

البواعث والأهداف

ثمة مجموعة من البواعث والأهداف دفعت السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء الخط الحجازي والشبكة التلغرافية. وتنوعت هذه الأهداف بين دينية وعسكرية واقتصادية وحضارية وسياسية. ويأتي الهدف الديني في مقدمة هذه الأهداف، حيث استهدف مشروع الخط الحجازي خدمة حجاج بيت الله الحرام من خلال توفير وسيلة سفر يتوفر فيها الأمن والسرعة والراحة، وحماية الحجاج من غارات البدو ومخاطر الصحراء التي كانوا يتعرضون لها في الطريق البري ومن هجمات القراصنة في الطريق البحري، إضافة إلى توفير إمكانات وفرص أكبر للراغبين في أداء فريضة الحج نتيجة انخفاض تكلفة الحج الذي سيحققها ذلك المشروع، مما سيزيد من عدد حجاج بيت الله الحرام.

ويحتل الهدف العسكري مكانة متميزة بين أهداف الخط الحجازي، إذ كان يستهدف تسهيل التحركات العسكرية وحشد الجيوش بُغية التصدي لأية هجمات خارجية قد تتعرض لها مناطق الحجاز والبحر الأحمر واليمن، وإحكام السيطرة على البقاع الجغرافية ذات التوتر السياسي الدائم. وبهذه الكيفية تشعر المنطقة بقوة الإدارة المركزية للدولة العثمانية.

أما الهدف التجاري فتمثل في إنعاش الاقتصاد الراكد بالمنطقة من خلال تحقيق نهضة تجارية واقتصادية لمدن الحجاز وكافة المدن الواقعة على امتداد الخط، وإحداث عملية رواج للمنتجات التجارية والزراعية من خلال نقلها نقلاً سريعا بالقطار إلى المناطق الأخرى، بل وكان من المخطط له مد الخط الحديدي تجاه أحد موانئ البحر الأحمر؛ ما يؤدي إلى زيادة الأهمية الاقتصادية والتجارية للخط زيادة واضحة. وبهذه الكيفية كانت طرق التجارة ستنتقل من قناة السويس إلى خط حديد الحجاز.

ومع إنجاز هذا المشروع العملاق بتمويل وكوادر عثمانية، كان سيثبت للدول التي تطمع إلى تفريق الدولة العثمانية وتريد التهامها وعلى رأسها الدول الأوربية، أن ثمة منجزات حضارية عظيمة يمكن للعثمانيين تحقيقها دون الحاجة إلى اللجوء إليها.

وكان للسلطان عبد الحميد الثاني أهدافٌ سياسية مهمة وراء إنشاء الخط الحجازي. إذ اعتقد بأن إنجاز هذا المشروع يعني تحقيق قدر من الاستقلالية للدولة العثمانية عن أوربا، عسكريا وسياسيا واقتصاديا وتقنيا. فالسلطان عبد الحميد الثاني والذي عُرف بتميزه عن سابقيه بحرصه على بقاء الخلافة العثمانية وحمايته لها، كان يبذل ما بوسعه بُغية توحيد صفوف المسلمين وتشكيل "اتحاد إسلامي" لمواجهة الأطماع الأوربية الاستعمارية وهجماتها الغاشمة على الدولة العثمانية، إضافة إلى دعمه لحركة "الجامعة الإسلامية" التي دعت إلى تكتيل جميع المسلمين داخل الدولة العثمانية والمناطق المختلفة من العالم خلف راية الخلافة العثمانية. ولعل خط حديد الحجاز يعتبر من أروع إنجازات السلطان عبد الحميد الثاني الرامية إلى الحفاظ على وحدة أراضي الدولة العثمانية.

الإنشاء والتنفيذ

يتحدث السلطان عبد الحميد الثاني عن الخط الحجازي في مذكراته بقوله: "أخيراً تحقق الخط الحجازي؛ ذلك الحلم الذي طالما راود مخيلتي. فذلك الخط الحديدي لم يكن فقط مصدرا اقتصاديا للدولة العثمانية، بل كان في الآن ذاته يمثل مصدراً بالغ الأهمية من الناحية العسكرية من شأنه تعزيز قدرتنا العسكرية على امتداده".

وقد أصدرت الإدارة السلطانية الخاصة قراراً بالبدء في إنشاء خط حديد الحجاز في الثاني من مايو عام ١٩٠٠م، وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٠م، والذي يوافق العام الخامس والعشرين لجلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، تم تدشين العمل في خط الحديد بين الشام ودرعا في احتفال رسمي مهيب.

ووصل خط الحجاز إلى عمّان عام ١٩٠٣م، وإلى معان عام ١٩٠٤م. وفي الأول من سبتمبر عام ١٩٠٥م اكتملت المرحلة الأولى من خط الحجاز، وانطلقت أولى رحلات القطار بين الشام ومعان لنقل الركاب والبضائع.

وفي الأول من سبتمبر ١٩٠٦م وصل الخط إلى مدائن صالح، ثم في ٣١ أغسطس ١٩٠٨م وصل إلى المدينة المنورة. وخلال الثمانية أعوام التي جرى فيها تنفيذ خط الحجاز وصل طول الخط إلى ١٤٦٤ كم. ومع إضافة الخطوط الفرعية الأخرى في المراحل اللاحقة بلغ طول الخط ١٩٠٠ كم عام ١٩١٨م.

وكان الجيش العثماني هو المصدر الرئيسي للقوة العاملة في



إنشـــاء خط حديد الحجاز. وســـاهم أيضاً في إنشاء هذا الخط عمــــال توافدوا من مناطق جغرافية مختلفة من العالم الإســـلامي في مقدمتها ســـوريا والعراق. ولما كانـــت أعداد أولئك العمال الوافديـــن محدودة، فقد تحمل الجنود العثمانيين معظم أعباء ذلك المشروع. وكان الجنود يتقاضون أجوراً ضئيلة خلال فترة عملهم في المشروع، في مقابل السماح لهم بالانتهاء من الخدمة العسكرية قبل عام من موعدها المحدد.

تولى منصب كبير مهندسي الأعمال الفنية، مهندس ألماني يُدعى "مايسنر باشا"، وعمل تحت قيادته أربعة وثلاثون مهندسا، سبعة عشر منهم عثمانيون والآخرون كان معظمهم من الألمان، بالإضافة إلى مهندســـين من إيطاليا وفرنسا والنمســـا وبلجيكا واليونان.

وبعد وصول الخط الحديدي إلى محطـــة مدائن صالح أصبح الجزء المتبقي من الخط داخل حيـــز المنطقة الحرام. ولما كان من المحظور شرعاً دخول غير المسلمين إلى هذه المنطقة، فقد جرى إنشـــاء الخط الواقع بين مدائن صالح والمدينة المنورة كله بأيدي مهندسين وعمال مسلمين.

ومع تقدم العمل في المشروع ازدادت خبرة العثمانيين، وعليه قلت أعداد المهندسين الأجانب في المراحل المتقدمة منه أمام أعداد المهندســـين المسلمين التي كانت تزداد يوما بعد يوم. ومن ثم تميز خط حديد الحجاز بوصفه مشروعا عمل فيه الكثير من المهندسين المسلمين، قياسا بخط حديد الأناضول وخط حديد بغداد.

تضحيات بطولية

استغرق إنشاء الخط الرئيسي لطريق الحجاز ثمانية أعوام، وعمل فيه نحو خمســـة آلاف عامل معظمهم مـــن الأتراك وبعضهم من العرب وبعضهم من أجناس مســـلمة أخرى. ولا شـــك أن قيام الجنود العثمانيين بالعمل في هذا المشـــروع قد خفض كثيراً من النفقـــات. وهو ما يأتي في مقدمة العوامـــل المهمة في إنجاز هذا الخـــط الحديدي. كما كان لتدين الجنود العثمانيين وحبهم للنبي ﷺ دوره البالـــغ في إنجاز هـــذا العمل في فترة تُعد قصيرة، حيث قاموا بشق الطرق عبر الفيافي والقفار والجداول والوديان. ولعل الفضل في إنشـــاء هذا الخط الحديدي يرجع إلى أولئك الشجعان البواسل الذين قدموا من الأناضول لإنشاء وتركيب تلك الخطوط الحديدية في صحاري شبه الجزيرة العربية.

وإذ يقوم أولئك البواســـل بنصب قضبان السكك الحديدية وأعمدتها وتشـــييد محطاته، كانوا ينصبون أيضاً الشواهد لقبور شـــهدائهم؛ حيث استشهد خلال إنشـــاء خط السكة الحديدية الكثير من الجنود العثمانيين، إما عطشاً تحت نيران الشمس الحارقة بسبب نقص المياه، وإما من سوء التغذية، فضلاً عمن استشهدوا بســـبب حوادث العمل أو غارات البدو. ولقد انتشرت شواهد قبور هؤلاء الشـــهداء العثمانيين البواسل على امتداد خط السكة الحديدية حـــتى المدينة المنورة جنباً إلى جنب مع محطات القطار. وإن تكن آثار وبقايا هذا الخـــط الحديدي لا تزال موجودة إلى اليوم، فإن قبور معظم أولئك البواسل وأسماءهم قد طوتها صفحة النســـيان و لم يعد لها وجود. فيكفـــي أن نعلم أن عام ١٩٠٨م وحده قد شهد أكثر من ١٢٦ غارة من غارات البدو على خط حديد الحجاز، فضلاً عن مشـــكلات نقص المياه وظهور بعض الأمراض وتدخلات الدول الأجنبية.. وهو ما يعطي لنا مؤشـــراً مهماً لفهم أسباب البطء في تنفيذ المشروع.

الموقف الأوربي

تلقت أوربا الإعلان عن الخط الحجازي بدهشة بالغة، واعتبرت إقدام الدولة العثمانية على مشـــروع مثل هذا ضرباً من الخيال، حيث كانـــت الدولة العثمانية آنذاك في وضع اقتصادي متدهور أوشكت فيه على الإفلاس بســـبب ديونها الخارجية والداخلية؛ حتى أن بعض الصحف الأوربية آنذاك قد تطاولت عبر صفحاتها

على المشروع والسلطان عبد الحميد الثاني بالاستهزاء والسخرية، وخصصت لذلك أخباراً مطولة ورسوما كاريكاتيرية بذيئة.

ومع التقدم في إنشاء الخط وإظهار القائمين عليه لتضحيات كبيرة، أخذت الدول الأوربية تضع العراقيل للحيلولة دون إكمال العثمانيين لهذا المشروع. وكانت بريطانيا وفرنسا في مقدمة هذه الدول. فأسرعت تلك الدول ولا سيما بريطانيا للحيلولة دون مساندة الشعوب التي تخضع للاستعمار البريطاني لهذا المشروع، حيث قامت بنشر الشائعات بين المسلمين الهنود الذين يقومون بالتبرع لإقامة الخط الحجازي، وأطلقت شائعات مثل أن "التبرعات لا تُستخدم في إنشاء الخط الحجازي". بيد أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل التام، واستمر المسلمون الهنود في جمع التبرعات وإرسالها إلى الدولة العثمانية. كما حظر الاستعمار البريطاني على مسلمي الهند تعليق "وسام خط حديد الحجاز" الذي يُمنح لكبار المتبرعين.

وقد سعت بريطانيا إلى استعمال شتى الطرق من أجل انسحاب العثمانيين من الأراضي المقدسة بعد الحرب العالمية الأولى. ومما يلفت النظر هنا أن تعطيل خط حديد الحجاز كان أول ما قامت به بريطانيا بعد انسحاب العثمانيين من مكة والمدينة المنورة؛ إذ كانت تنظر إلى الخلافة العثمانية باعتبارها التهديد الأكبر ضد طموحاتها الإمبريالية في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، ومن ثم فقد شعرت بارتياح شديد بعد أن قامت بقطع الروابط بين الأناضول وشبه الجزيرة العربية من خلال تعطيل الخط الحجازي. أما فرنسا فقد سعت لفرض القيود والعقبات أمام إنشاء خط حديد الحجاز من خلال الموانئ التابعة لإدارتها؛ حيث فرضت ضرائب جمركية باهظة على مستلزمات خط الحديد، وعطلتها داخل الموانئ فترات طويلة.

وإن تكن كل هذه العقبات قد أبطأت من معدل إنجاز الخط، إلا أنها لم تستطع أبداً إيقاف عجلة التقدم نحو الانتهاء من تنفيذ المشروع. واكتمل خط حديد الحجاز رافعاً راية العصيان والتحدي في وجه الاستعمار الأوربي، ومعلناً أن قلب "الرجل المريض" لا يزال ينبض بالحياة.

المصادر المالية

كان فترة سلطنة السلطان عبد الحميد الثاني من أصعب فترات الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية. ولم يأل السلطان عبد الحميد جهداً من أجل سداد الديون الخارجية الضخمة التي ورثها عن أسلافه. ورغم أنه قد اضطر للحصول على قروض خارجية ضئيلة في بعض الأوقات، إلا أن ما قام بسداده كان يفوق بكثير ما اقترضه. وكان يدرك أن الديون الخارجية تزعزع هيمنة الدولة، والديون الداخلية تزعزع سلطتها. ومن ثم لم يفكر في الحصول على أي قروض خارجية لتمويل إنشاء خط حديد الحجاز.

وكانت التبرعات -وللمرة الأولى في تاريخ الدولة العثمانية- هي المصدر الأول لتمويل هذا المشروع الضخم. فكان تمويل خط حديد الحجاز من تبرعات المسلمين في شتى أنحاء العالم دون أن تشوبه أي مساهمة من الدول الأجنبية على النقيض من خطي سكة حديد الأناضول وبغداد اللذين أقيما بتمويل أجنبي.

وكانت الدولة العثمانية قد خصصت ١٨٪ من ميزانيتها لإنشاء هذا الخط، بيد أن تلك النسبة اعتُبرت ضئيلة للغاية عندما تم الإعلان عن أن إنشاء الخط سيتكلف نحو ثمانية مليون ليرة عثمانية. ومن ثم برز الاحتياج الشديد للأموال اللازمة لتنفيذ المشروع. ذلك المشروع الذي اعتبره المسلمون بمثابة "مسألة عزة وكرامة" أمام أوروبا. وأراد السلطان عبد الحميد أن يجنب دولته المزيد من الاستدانة، وأن يكون تمويل المشروع الحجازي بأموال إسلامية تماماً. فوجه نداءً إلى العالم الإسلامي من أجل التبرع للمشروع، ليدشن بذلك حملة تبرعات قلّ أن نجد لها نظيراً في تاريخ العالم.

وبدأت حملة التبرعات الأولى في مايو عام ١٩٠٠م، بأن تبرع السلطان عبد الحميد الثاني من جيبه الخاص بخمسين ألف ليرة عثمانية، ودعا المسلمين كافة للمشاركة في هذه الحملة، سواءً كانوا ممن يعيشون في الأراضي العثمانية أو في غيرها. ومن بعد السلطان تبرع الباشاوات العثمانيون، ثم أقبل موظفو الدولة والتجار والبائعون والجنود والشعب على المشاركة في هذا التنافس الخيري. ولقي نداء السلطان عبد الحميد استجابة تلقائية وفورية بين كافة المسلمين في شتى بقاع العالم، حيث اقتطع المسلمون من أقواتهم ومدخراتهم للمساهمة في تمويل الخط الحجازي.

بل إن دولة ذات صراع تاريخي مع الدولة العثمانية مثل إيران قد جمعت أيضاً مقداراً من التبرعات -وإن كان ضئيلاً- وأرسلته إلى إسطنبول. وانهالت التبرعات التي جاءت من مناطق مترامية الأطراف مثل الهند وأفغانستان، ومن دول أخرى مثل الجزائر والسودان وتونس وليبيا وإندونيسيا وماليزيا. وتدفقت التبرعات من كافة أرجاء العالم؛ فجاءت التبرعات من الشعوب التركية في آسيا الوسطى، ومن مسلمي أوربا وأفريقيا وأمريكا. وذلك رغم كل المحاولات التي قامت بها الدول الأوربية لصرف

هذه الشعوب المسلمة عن هذا المشروع وإقناعهم بعدم جديته. وأصبحت التبرعات التي تم جمعها من الضخامة ما تكفي لإنشاء ثلث الخط الحجازي.

وحرصت الدولة العثمانية على تكريم المتبرعين من خلال منحهم نياشين وأوسمة مصنوعة من الذهب والفضة تخليداً لذكرى الخط الحجازي. وإضافة إلى ما تم جمعه من تبرعات، فقد اضطرت الدولة العثمانية إلى الاقتطاع الإجباري من مرتبات موظفي الدولة من أجل الإسهام في إنشاء الخط. وجدير بالذكر هنا أننا لا نكاد نجد شكوى واحدة من أولئك الموظفين بسبب هذا الاقتطاع الإجباري من رواتبهم. وهو ما يُعد إشارة واضحة على أن الأمة التي تلتف حول هدف واحد، قادرة على التضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيل تحقيق ذلك الهدف. وتاريخ الأتراك في الفترات اللاحقة يشهد على أحداث مشابهة لتلك التضحيات، تجلت فيها هذه الروح والفكرة والعقدية دون أن يعتريها خلل أو عطب.

كما حرصت الدولة أيضاً على اقتطاع جزء من دخلها العام لتمويل المشروع الحجازي، فأصدرت طوابع تمغات متعددة الفئات المالية في كافة دوائرها الحكومية والبيروقراطية، وجمعت جلود الأضاحي وباعتها وحملت عائداها إلى ميزانية المشروع. إضافة إلى أن نظام البدء الفوري في تشغيل رحلات الركاب والبضائع في الأجزاء التي اكتملت من الخط الحديدي، كانت مصدراً آخر من مصادر التمويل.

ورغم الانتهاء من إنشاء المشروع الحجازي، وانسحاب العثمانيين من المنطقة مع حلول عام ١٩١٨م، وتخريب الخط ونسف جسوره وانتزاع قضبانه مع نشوب الثورة، إلا أن التبرعات لم تتوقف وظلت تتدفق من مختلف أنحاء العالم. ولا ريب أن هذه الهمة العالية والتنافس في فعل الخيرات قد أظهر للعالم كله مدى عمق الأخوة الإسلامية وقوتها ورحابتها.

حركة القطار

في الأول من سبتمبر عام ١٩٠٨م والموافق للعام الثاني والثلاثين من جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على عرش الدولة العثمانية، قام بافتتاح خط حديد الحجاز وسط مراسم رسمية مهيبة. وكانت قبل ذلك "لجنة خط حديد الحجاز" قد قامت نيابة عن السلطان بافتتاح المحطات الممتدة على خط سكة الحديد في احتفالات رسمية أيضاً.

وكان لغير المسلمين أيضاً الحق في استخدام المحطات البينية الموجودة على خط حديد الحجاز، غير أنه لم يكن من المسموح لهم الوصول بالقطار إلى المدينة المنورة، وكان للخط دور في نقل الأموال. وأسدى قطار الحجاز خدمات جليلة لحجاج بيت الله الحرام، واستُخدم أيضاً في بعض الأغراض العسكرية مثل نقل الجنود من منطقة إلى أخرى. كما قام القطار بنقل البضائع بين المناطق المختلفة، وهو ما أحدث انتعاشة في الحياة الاقتصادية والتجارية.

وتحددت أوقات تحرك القطارات وفقاً لمواقيت الصلاة. فكانت القطارات تتحرك على نحو لا يخل بأوقات الصلاة. فإذا ما دخل وقت الصلاة توقف القطار وتوجه الركاب لأداء الصلاة في العربة المخصصة لذلك.

الدلالة الدينية

قد تكون نظرتنا قاصرة إذا نظرنا إلى البعد الديني للخط الحجازي في نقله للحجاج فحسب. فالقطار الحجازي كان يؤدي في الوقت ذاته مهمة عريقة، ويحافظ على تقليد يضرب بجذوره في التاريخ وهو إرسال "الصرة السلطانية" إلى الحجاز. وكان السلاطين العثمانيون كلهم تقريباً يقومون بتجهيز قدر كبير من الأموال عُرف بـ"الصرة السلطانية" وإرسالها إلى الحجاز. وهو تقليد يرجع بجذوره إلى العباسيين ثم إلى العثمانيين اعتباراً من السلطان العثماني "يلديرم بايزيد".

وكانت "الصرة السلطانية" قديما تبدأ رحلتها في بداية كل ثلاثة أشهر عبر الطريق البري. وعرفت الطريق البحري مع استخدام السفن البخارية منذ عام ١٨٦٤م، ثم أصبح لها مكانها الخاص في القطار الحجازي بعد عام ١٩٠٨م. وكانت أموال "الصرة السلطانية" مخصصة للإنفاق على كافة الخدمات في مكة المكرمة والمدينة المنورة، مثل شؤون الإعمار والإصلاح وغيرهما، ودفع رواتب العاملين هناك. كما كانت أيضاً مصدراً من مصادر توفير الراحة وتيسير مناسك الحج لزوار بيت الله الحرام. إضافة إلى أن القطار الحجازي قد وفر لوفد "الصرة السلطانية" رحلة سريعة ومريحة وآمنة.

وأخيرًا وبهذه المناسبة نتوجه بخالص العرفان بالفضل والدعاء بالرحمة لأولئك الذين عملوا على إنشاء خط سكة حديدية الحجاز، وأولئك الذين سقطوا شهداء خلال أداء واجبهم فيه، وأولئك الذين اقتطعوا من أقواتهم ومدخراتهم للمساهمة فيه، وأولئك الذين بذلوا النفس والنفيس بكل تجرد وإخلاص لذلك المشروع. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: د. طارق عبد الجليل.

شمس القلوب أبداً لا تغيب

السنوسي محمد السنوسي*

مع نسمات الصباح وجلال الغروب يحلو للمسلم أن يرطب فؤاده بأذكار الصباح والمساء. يستفتح يومه بميلاد فجر جديد فينطلق لسانه بالذكر، وجوارحه بالصلاة والتسبيح رجاءَ أنْ يكون يومه خيرًا من أمسه، وشاهداً له لا عليه.

إن المسلم حين يلهج لسانه بذكر الله صباحاً ومساءً، فإنه بذلك يقرّ لله بالربوبية ويشهد له بالعبودية، وينضم لقافلة المسبّحين في أرجاء الكون الفسيح.. من الشجر والحجر والطير والدوّاب: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤).

ثم حين يذهب إلى السوق أو عمله، فهو صورة صادقة لما يحمل من منهج، وما يعتنق من مبادئ.. فلا غشّ ولا كذب، بل صدق ووفاء وحسن خلق وأمانة.. يتوكل على الله.. يأكل من رزق الله، وينفق فيما أحل الله.. وبين الحين والحين يدلف للمسجد.. يجدد إيمانه ويضاعف نشاطه ويلتمس في جنباته زاد الحياة ورحيقها.

إن ذكر الله -عند طلوع الشمس وغروبها- يُشعر المرءَ دائماً بلحظات الميلاد والموت، البدء والانتهاء، للكون واليوم والإنسان والحياة.. وضرورة أن يكون البدء والانتهاء وما بينهما لله، وبالله، ومن الله.. فهو سبحانه خالق الحياة، ومبتدئ الأشياء، وإليه المرجع والمآب ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

مَنْ حافظ على أذكار الصبح والمساء كانت له نوراً وبرهاناً في الدنيا والآخرة، وفرّج الله همّه وأذهب عنه حزنه وسدّ دينه ورزقه من حيث لا يحتسب.. وفوق ذلك، جعله من الذاكرين والذاكرات الذين أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

وما يزال المؤمن بأذكاره يتقلب في روضة من رياض الجنة، يشم رائحتها الزاكية، ويقطف من ثمارها اليانعة، ويركن إلى ظلها الوارف، وينعم بمعيّة الله؛ فهو لا ينفك في أحواله -وإنْ اختلفت أو تقلبت- ذاكراً شاكراً صابراً محتسباً.. فهو مع الله، والله معه، وهذا ما يومئ إليه الحديث القدسي: "أنا جليس من ذكرني".

فإذا أحب الله عبدًا، ألهمه شكره وشغله بذكره آناء الليل وأطراف النهار.. ولعمري، إن هذا التوفيق من الله نعمة تستحق الشكر، وجزاءٌ -على الذكر- كفى به جزاءً.. ينبهنا ابنُ عطاءِ الله السكندري بحسٍّ مرهف إلى هذا المعنى اللطيف فيقول: "كفى من جزائه إياك على الطاعة، أنْ رضيك لها أهلاً؛ كفى العاملين جزاءً، ما هو فاتحُه على قلوبهم في طاعته، وما هو موردُه عليهم من وجودِ مؤانسته".

ولذلك، كان ذكر الله نوراً تستضيء به القلوب ويغمر الجوارح، فيسكب عليها سكينة وطمأنينة وخشوعاً.. ولئن غابت الشمس فأظلم الكون بغيابها، وافتقر الناس إلى وجودها.. فإن ذكر الله "شمس القلوب" لا يغيب بحال عن المؤمن، وهو ينير قلبه ما تحركت به شفتاه، وسكنت جوارحه لأمر ربها:

إنَّ شمسَ النَّهارِ تَغْرُبُ باللَّيْـ
ـلِ، وشمسُ القلوبِ ليستْ تَغِيبُ. ■

(*) كاتب مصري.



البيروني
رائد علم الجيولوجيا

أ.د. بركات محمد مراد *

ازدهرت الحياة العقلية والروحية في عصر البيروني ازدهارا بالغا. فكان انطلاق مفكري الإسلام وعلمائه في كل ساحات الفكر وميادين العقل غير عابئين بالعراقيل والتقاليد القديمة بعد أن أعطاهم الإسلام حرية فكرية خصبة، وحرر عقولهم من كل قيد إلا قيد الحقيقة والتزام الصدق والموضوعية. وبعد أن ترجموا كل ما ورثوه عن الحضارات الهندية والفارسية واليونانية، أخذوا يعملون عقولهم في كل ما ترجموه ونقلوه بعد أن مزجوه بالروح الإسلامي. فجاءت كتاباتهم ومؤلفاتهم دليل خصب على حضارتهم وتميزها عن كل ما جمعوه من السابقين، وتمثلوه من الحضارات المعاصرة لهم، فأثبتوا بذلك أنهم واسطة العقد في حضارات الإنسانية.

ومن هنا أقبل العلماء المسلمون على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية، حيث تكلموا في التطور، وإن نسب إلى "دارون" في القرن التاسع عشر. وتحدثوا في الجاذبية بين السرعة والثقل والمسافة وإن نسب كل ذلك إلى "نيوتن" دون سواه، وقد ثبت أن "الخازن" وغيره كتبوا في ذلك قبل نيوتن بمئات السنين. وتحدثوا في أثر البيئة على الأحياء قبل "لامارك". كما شرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل "هارفي" ببضعة قرون. وكذلك الحال في طبيعة الضوء وسرعته وانكساره، والذي أثبته ابن الهيثم في مؤلفاته قبل علماء أوربا. كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوا الاعتدالين، وقدروا حجم الكواكب وما بينها من مسافات قبل "جاليليو" و"كبلر" و"كوبرنيق"، وأضافوا إلى المعارف الفلكية الشيء الكثير، وهذا واضح عند علماء من أمثال البيروني والبتاني والفرغاني والكندي والخوارزمي والصوفي وغيرهم..

العلماء المسلمين ومناهج البحث العلمي

ويرجع كل ذلك إلى استلهام علماء المسلمين لروح حضارتهم التجريبية والتي خالفت الروح اليونانية. يقول "جورج سارتون" أعظم مؤرخي العلم في القرن العشرين في اعتراف بفضل المسلمين على رواد المنهج العلمي الحديث: "عند نهاية القرن الثالث عشر، استعدت عقول بعض أعاظم حكماء العالم النصراني، منهم "ألبرت الكبير" و"روجر بيكون" و"ريمون لال" إلى الاعتراف بتفوق الثقافة الإسلامية، وربما كانت المأثرة الأساسية التي تمخض

عنها الجهد في العصور الوسطى هي تربيب الروح التجريبية. وترجع هذه المأثرة بديا إلى جهد المسلمين حتى آخر القرن الثاني عشر ثم انتحلها النصارى".

هذه الروح التجريبية والتي تمثل "المنهج" تجسدت في "الاستقراء" (Induction) الذي أصبح حجر الزاوية في "المنهج العلمي" الحديث. ومن هنا فلم تعد قضية العلم عندهم قضية تأمل فلسفي أو استدلال منطقي ينطلق منهجيا من فكرة الاتساق الداخلي ويعتمد على قانون الهوية، ولكنها أصبحت قضية ملاحظة نشطة ومشاهدة واقعية وتجارب تجرى على مختلف الظواهر الجزئية، تعتمد على قوانين العلية وتستقرأ المواد الطبيعية والكونية فتصل إلى التفسير العلمي الصحيح.

البيروني، العالم الطبيعي الموسوعي

وقد كان البيروني أنموذجا لذلك العالم التجريبي المسلم، الذي يعتمد الملاحظة والمشاهدة العلمية أساسا منهجيا ويتوسل بالاستقراء طريقا إلى معرفة قوانين الطبيعة ونواميس الكون. وتؤكد مؤلفاته المتنوعة ذلك، حيث كتب في كثير من العلوم الطبيعية، وبحث في مختلف الظواهر الكونية. فنجد مؤلفه "الصيدنة في الطب" يؤسس به علم الأدوية والعقاقير أو الفارماكولجي، ونجده في كتابه "الجماهر في معرفة الجواهر" يؤسس لعلم المعادن والبلورات ويحدد الأوزان النوعية لكثير من الجواهر والأحجار والمعادن، ونجده في كتابيه "القانون المسعودي" و"الآثار الباقية" يؤسس لكل من الرياضيات الفلكية وعلم الجيولوجيا والطبقات الرسوبية. وكما كان مؤسسا لعلم مقارنة الأديان ومنهج البحث العلمي التاريخي بكتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" نجده يؤسس بكتبه "تحديد نهايات الأماكن" و"إفراد المقال" و"التفهيم لأوائل التنجيم" لعلم المساحة أو الجيودسيا. ويتمكن بوضعه لقانون رياضي فلكي من قياس محيط الأرض.

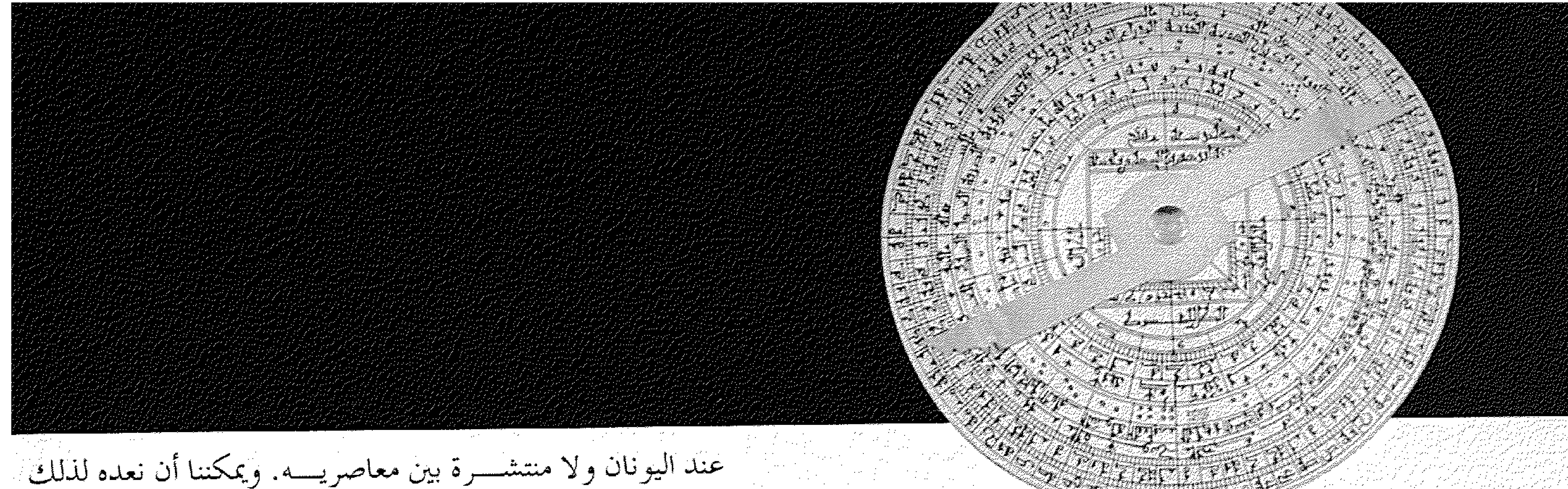
وأتيحت للبيروني، إضافة إلى علاقاته الشخصية مع العديد من الباحثين والحكماء المسلمين والنصارى والهندوس المعاصرين له، فرصة الاطلاع على العديد من النصوص العلمية اليونانية والبابلية والمانوية والزرادشتية القديمة. وفي الحقيقة لا يمكن النظر على كتاب "القانون المسعودي" على أنه مرجع للفلك الإسلامي فقط، بل هو مصدر أيضا لكثير من العلوم اليونانية والكلدانية القديمة التي لم يعثر على نصوصها الأصلية. ثم إن البيروني كان قد قرأ أيضا عددا لا بأس به من الملفات التي لها علاقة "بالفلسفة الطبيعية" والتاريخ إلى جانب معرفته الكاملة بالنصوص الفلكية-الرياضية كالمجسطي والعناصر ومختلف أشكال السند هند وغيرها من المصادر الهندوسية الأخرى. وتضمن كتاب "الجماهر في معرفة الجواهر" الذي هو من أكثر المصادر الإسلامية شمولية في تناوله لعلم المعادن، أسماء علماء مسلمين مثل الكندي والجاحظ ومحمد زكريا الرازي وجابر بن حيان، وأسماء شخصيات أدبية وتاريخية وجغرافية مثل نصر بن يعقوب الدينوري وأبي العباس العماني، إضافة إلى أسماء مؤلفين يونان مثل أرسطو، وأرخميدس، وأبولونيوس، وديسكوريدس، وبلوتارخوس، وجالينوس، وبولس ديمقرايطس، وأفلاطون، وهير فليدس، وديوجينيس.

ويستشهد البيروني أيضا بالشعر العربي-الإسلامي والجاهلي- وبالمصادر الفارسية والهندية والسريانية والإسكندرية. وهو كثيراما يورد في كتاب"الجماهر" وغيره من المؤلفات نصوصا من الكتب المقدسة كالعهدين القديم والجديد والأفيستا والقرآن الكريم الذي كان -بالطبع- على معرفة كاملة به. وبالجملة، لم يدع البيروني علما من علوم عصره فيما خلا عددا ضئيلا منها إلا وتعرض له ودرسه. غير أنه وبسبب صدف الترجمة، لم يكن معروفا في الغرب اللاتيني أو لم يكن له ذات التأثير الذي كان لمعاصره ابن سينا. يقول الباحث سيد حسن نصر: "فقد بقي البيروني سيد علوم الفلك والنجوم والجغرافية والرياضيات في العالم الإسلامي بلا منازع".

جيولوجي العصور الوسطى

إذا كان علم الجيولوجيا هو العلم الذي يبحث في الأرض من حيث نشأتها وهيأتها وتركيبها وما يحيطها وما يظهر عليها من أنواع الحياة وما أثر فيها من عوامل، فقد جاءت علوم الأرض الحديثة في أوربا امتدادا لإسهامات المسلمين في هذا الحقل. وهو ما يظهر واضحا عند ليونارد دافنشي، وجوهان شذلر، ونيكولاس ومسينو، وروبرت هول، الذين اهتموا بتقسيم الصخور إلى طبقات لها معنى زمنيا، ووضعوا نظريات لتفسير نشأتها وتكونها. ولم تكن علوم الأرض أو الجيولوجيا منفصلة عند البيروني عن العلوم الطبيعية الأخرى كالفلك والجغرافيا والفيزياء، بل كانت مرتبطة بها، يتناولها خلال دراساته لتلك العلوم. لأن علم الجيولوجيا لم يتميز عن بقية هذه العلوم إلا حديثا.

وقد احتوت مؤلفات البيروني العلمية أبحاثا عميقة حول موضوع تكون القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من



تطورات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المتطاولة. وكانت له نظريات في قدم الأرض وغيرها، وما اعتراها من ثورات وبراكين وزلازل وعوامل تعرية غيرت من وجهها الطبيعي على مر العصور. وهذه النظريات وتلك الآراء لم تكن معلومة في عصره أو سائدة في زمانه، وهي مما يُعد اليوم من دعائم علم الجيولوجيا. وقد أشار البيروني في كتابه "الجماهر في معرفة الجواهر" إلى أن "الحصاة قد ينحتها جريان الماء"، وتناول بالشرح والتحليل لتقطع الجبال بالجرفات وإسالة السيول إلى السفوح. كما أشار إلى تكون السهول الرسوبية وضرب لها أمثلة بأرض مصر وبراري السودان، وأنها كانت بحرا ثم انحسر عنها البحر، حيث قال: "وبراري السودان كلها، فإنها في الأصل من حمولات السيول المنحدرة من جبال القمر والجبال الجنوبية عليه منكبسة كانكباس أرض مصر بعد أن كانت بحرا، وتلك الجبال مذهبة وشديدة الشهوق".

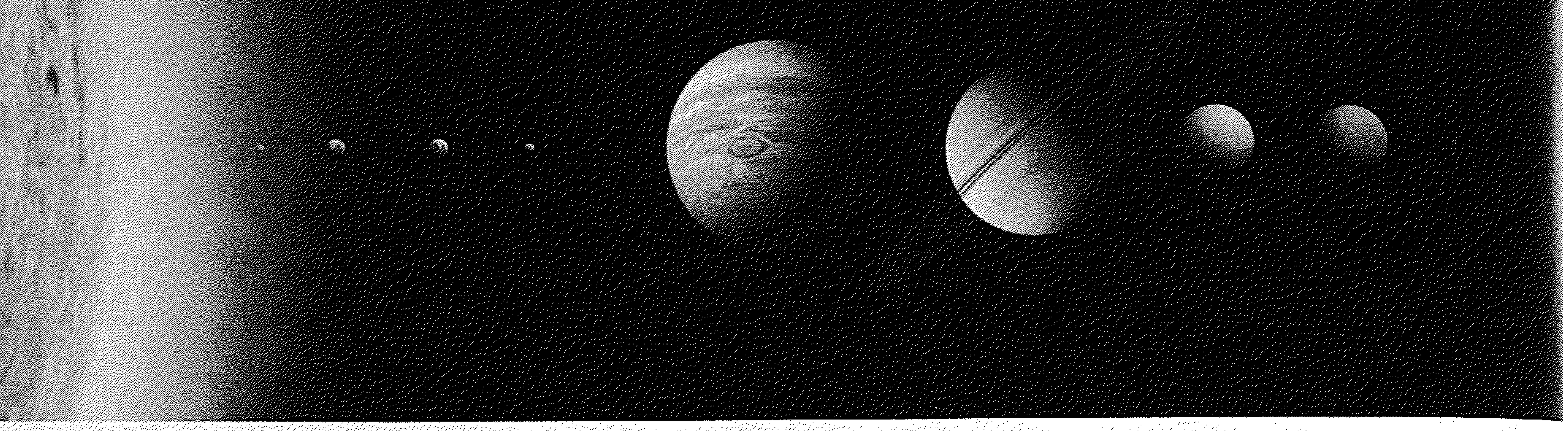
وقد سمى البيروني ظاهرة الترسب وانحسار ماء البحر "انكباسا" كما مر. وقد عدد أحد الباحثين المتخصصين في الجيولوجيا، العلوم التي تحتويها أبحاث البيروني الجيولوجية فشملت "علم التضاريس" و"علم الطبقات" و"كيمياء الأرض" و"المعادن والبللورات" و"الجيولوجيا التاريخية".

نظريات البيروني الجيولوجية

للبيروني نظريات في علم الطبقات والأزمان الجيولوجية، أو ما يطلقون عليه حديثا "علم الطبقات" (Stratigraphy) و"علم الأحافير" (Paleontology) و"الجيولوجيا التاريخية" (Historical Geology). وتقترب نظرياته في هذه العلوم من النظريات الحديثة، حيث إن له آراء صائبة حول موضوع تكوين القشرة الأرضية، وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات وتغيرات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المختلفة. ولم تكن هذه النظريات معروفة عند اليونان ولا منتشرة بين معاصريه. ويمكننا أن نعده لذلك من رواد العلوم الجيولوجية، خاصة وأن هذه الأفكار العلمية الصائبة لم تنتشر في أوربا وتأخذ طريقها إلى أبحاث علماء النهضة كليونارد دافنشي وأمثاله إلا بعد وفاة البيروني بعدة قرون.

في كتابه "تحديد نهايات الأماكن" يقول البيروني عن ظاهرات تلك الرسوبيات التي تكونت خلال العصور الجيولوجية الطويلة: "ولا نعلم من أحوالها إلا ما يُشاهد من الآثار التي تحتاج في حصولها إلى مدد طويلة وإن تناهت في الطرفين، كالجبال الشامخة المتركبة من الرضراض الملس المختلفة الألوان المؤتلفة بالطين والرمل المتحجرين عليها". ثم يشرح لنا بتفسير علمي دقيق العملية الجيولوجية التي تكونت عبرها تلك الرسوبيات، مركّزا تفسيره على عوامل التعرية التي هي المؤثر الرئيس في تلك التكوينات التي تشكل على مر العصور البيئة الجغرافية للأرض. وهى عمليات الانصداع والانصدام وجريان الماء الذي يسببه تحرك الرياح واحتكاكها، وقوة إذابة الماء وجريانه، وهي العوامل الأساسية في التعرية.

ثم يفسر لنا البيروني التراكمات الرسوبية التي تتكون على مر العصور تفسيرا علميا قريبا مما نعلمه الآن من علم الرسوبيات (Sedimentalogy) من خلال كتابه السابق، ويشرح لنا بوضوح، أن تلك العمليات الجيولوجية تحتاج إلى أزمان طويلة جدا، كما أن كيفية تكونها ترجع في أساسها إلى تأثير الجاذبية من باطن الأرض على المكونات الخارجية للغلاف في القشرة الأرضية. ولا ينسى أن يبين تأثير التكوينات الرسوبية على عمارة الأرض أو ظهور الصحاري وما يعرف الآن بانجراف التربة وتصحر الأراضي الخصبة، مما يؤدي إلى سيطرة الصحراء وطغيانها على العمران والتربة الزراعية. كما يقدم لنا البيروني تفسيرا علميا دقيقا لتلك الظواهر الجيولوجية التي تنتاب القشرة الأرضية، ويعطي تعليلا صحيحا لتكون البحار والبحيرات وظهورها واختفاؤها. وهذا يظهر واضحا في تفسيره لأصل سهل الهندستان وتكونه.



وهو تفسير علمي دقيق في نظر علماء الغرب، حيث يتصل بعلم التضاريس أو الجيومورفولوجيا، حيث كان في مكان هذا السهل -في نظر البيروني- قاع بحر، ثم اخذت تتخلف فيه رواسب طمى حتى سوت منه سهلا.

كما يتناول البيروني ظاهرة الهوابط والصواعد ورواسب ماء البحر، حين يتناول تلك الرسوبيات المعدنية التي يجدها في مناطق انحسر عنها الماء، وبقيت فيها الرواسب معدنية متحجرة حلت محل الرواسب العضوية للكائنات البحرية. كما يحدثنا في كتابه "الصيدنة في الطب" عن أصل تحجر المعادن والتي كانت في نشأتها سائلة، ثم تجمدت حين يتحدث عن حجر "الدهنج" الذي أكثر ما يكون وجوده في معادن النحاس، كما يكون الزبرجد في معادن الذهب.

الثورات الجيولوجية

والبيروني كثيرا ما يتحدث عن الثورات الجيولوجية التي تنتاب القشرة الأرضية، وما كانت تفعله فيها من التواءات وارتفاعات وانخفاضات، كونت سلاسل الجبال، أو حفرت فجوات البحيرات، كما في بحيرات الأردن وبحيرات مصر. ويذكر البيروني كثيرا في مؤلفاته حقائق علم الجيولوجيا ونظرياته فيما يخص تكون الحفريات للكائنات الحية، سواء حفظ الكائن بجميع أجزائه، كحفريات النمل والبعوض وبعض الحشرات والحشائش التي توجد متحجرة ومحفوظة في مادة الكهرمان، أو تكون بقايا الأجزاء الصلبة الهيكلية فقط كأصداف المرجان وعظام الحيوانات، أو تفنى مادة الحيوان الأصلي وتستبدل مادتها بمادة معدنية أخرى، أو تكون الحفرية أثرا لبقايا الكائن الحي في الصخور التي يعيش فيها، وعندما تتصلب تحتفظ بهذه الآثار.

أما ما يخص شرح عمليات التحفر بالتحجر (Petrifaction) والتحفر بالاستبدال المعدني، فنجد للبيروني إشارات كثيرة إلى أصول هذا العلم، حين يتحدث عن الأحجار الكريمة كالبلور الذي كان في أصله سائلا ثم تحجر لاحتواء كثير من مواده رواسب الخشب والحشيش المخالفة لطبيعة ذلك المعدن نفسه. وما يذكره البيروني هنا هو تفسير علمي صحيح لا تخلو منه كتب الجيولوجيا في العصر الحديث.

ويبني البيروني دراسته للتغيرات الجيولوجية على ما حفظته طبقات الصخر من سجلات. فهو كثيرا ما يكتب حول التغيرات البطيئة للأحوال التي حفظت الصخور وآثارها. ولا نعلم من أحوالها إلا ما يشاهد من الآثار التي يحتاج في حصولها إلى مدد طويلة وإن تناهت في الطرفين كالجبال الشامخة المتركبة من الرضراض الملس المختلفة الألوان المؤتلفة بالطين والرمل المتحجرين عليها. وكل تلك الأحوال بالضرورة ذوات أزمان مديدة غير مضبوطة الكمية.

ونظرا لدقة التغيرات، فقد تمكن خلال أسفاره المتعددة من مشاهدة عدة مناطق ذات تراكيب جيولوجية مختلفة. كما أدرك التغيرات الهائلة التي حدثت قبل خلق الإنسان وبعده وحتى الآن. حتى إنه لاحظ وجود طبقات التوائية مزاحة في بعض الجبال. وقد عزى ذلك إلى حركات باطنية اندفاعية حديثة. وهناك الكثير من مثل هذه الملاحظات المثيرة للاهتمام، إحداها تدور حول اكتشافه للمستحاثات التي يعرفها -مثل إخوان الصفاء- بأنها بقايا حيوانات بحرية عاشت فيما مضي في الموضع الذي تحول الآن إلى يابسة. وكما يخبرنا عن ذلك: "وعلى مثله ينتقل البحر إلى البر والبر إلى البحر في أزمنة، إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة، وكانت بعده فغير محفوظة لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمر وخاصة في الأشياء الكائنة جزءً بعد جزء وبحيث لا يفطن لها إلا الخواص".

فهذه بادية العرب وقد كانت بحرا فانكبس حتى أن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض فإنها تبدي أطباقا من تراب ورمال ورضراض، ثم يوجد فيها من الخزف والزجاج والفطام ما يمتنع أن يحمل على دفن ذلك قاصدا إياها هناك، بل يخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما

يسمى بآذان السمك إما بقايا على حالها، وإما بالية قد تلاشت وبقي مكانها خلاء متشكلا بشكلها. كما يوجد بباب الأبواب على ساحل الخزر، ثم لا يذكر لذلك وقت معلوم ولا تاريخ البتة.

ومن الملاحظات المتميزة للبيروني تلك التي تتعلق بتحديده لطبيعة سهل الغانج في الهند حيث اكتشف أن هذا السهل هو من النوع الرسوبي. وبالرغم من تأكيده على الطبيعة التدريجية للعوامل المؤثرة في سطح الأرض، فإن البيروني يؤمن، مثل معظم علماء العصور الوسطى، بالجوائح التي تصيب الأرض من وقت لآخر. وناقش البيروني علاقة هذه الجوائح بتواتر التاريخ العام وقيام الدول وسقوطها فكتب يقول: "إن الآفات التي تنبتاها (أي الأرض) من فوق ومن تحت مختلفة في الكيفية وفي الكمية، وأنه ربما غشيها منها ما يفرط في إحداها أو كليهما، فلا ينفع معه حيلة ولا عنه مهرب واحتراس، فيأتي عليها ذلك كالطوفان المغرقة والرواجف المهلكة بالخسف أو التغريق والتحريق بما يفور منها من المياه أو يرمي به من الصخور المحماة والرماد، ثم الصواعق والهدات والعواصف، ثم الأوبئة والأمراض والموتان وما أشبه ذلك.. فإذا خلت بقعة عريضة عن أمتها ثم انتعشت بعد هلكتها عند انكشاف تلك الآفة عنها اجتمع إليها قوم متفرقون، كأمثال الوحوش المعتصمين قبل ذلك بالمخابئ ورؤوس الجبال، وتمدنوا متعاونين على الخصم، سواء كانوا من السباع أو كان من الأنس ومساعدين بعضهم بعضا على تزجية العيش في أمن وسرور إلى أن يكثروا فينغص التنافس المرفوف عليهم بجناحي الغضب والحسد طيبة عيشهم". وهكذا يمكننا استنتاج بأن هناك ترابطا وثيقا بين واقع المجتمع الإنساني وبين المحيط الكوني يشبه إلى حد كبير الترابط القائم بين الإنسان والعالم.

وتقود مناقشة الأمور الجيولوجية بشكل طبيعي إلى دراسة التقسيمات الجغرافية للأرض. وما تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم الوارد ذكره في القرآن الكريم والمعروف عند كل من اليونان والفرس في فترة ما قبل الإسلام، إلا انعكاس لصورة الأفلاك السماوية السبعة على الأرض. و لم يكن ذلك اعتباطا بل عبر على الأصح عن حقيقة كونية معينة، مثله في ذلك مثل جميع جوانب الجغرافية المقدسة، ولا يختلف البيروني أحد أعظم جغرافي الإسلام، عن الكثير من معاصريه في تبنيه التقسيم السباعي للأقاليم. وقد اتبع في مصطلحاته التقسيم الفارسي القديم للعالم.

وفي سؤاله الرابع الذي وجهه إلى ابن سينا حول الطبيعيات، يقدم البيروني سؤالا حير الجيولوجيين المحدثين تماما، كما حير العديد من مؤرخي العصور الوسطى الطبيعيين. والسؤال هو "لماذا ذلك الربع من الأرض هو مكان الزراعة والعمران بينما يبقي الربع الشمالي الآخر، وكذلك الربعين الجنوبيين غير مأهولة. بالرغم من أن القوانين الفلكية للربعين الجنوبيين تماثل تلك التي للربعين الشماليين؟". غير أنه يقر بوجود تناسق في تصميم العالم، إذ نراه يقول أنه "من الممكن، لا بل من المرجح، أن كل زوج من أرباع الأرض يشكلان وحدة متماسكة ومتصلة أحدهما، هو القارة، والآخر هو المحيط". وقد أورد في كتابه "تحديد نهايات الأماكن" مخططا جمع فيه جغرافية العالم التي عرفها مسلمو العصور الوسطي في شكل واحد معقول.

يقول "إيرو بوب" إن من المستحيل أن يكتمل أي بحث في تاريخ علم المعادن (Mineralogy) دون الإقرار بمساهمة البيروني العظيمة، خاصة وأن البيروني سيتمكن من معرفة الوزن النوعي لعدد كبير من المعادن بدرجة عظيمة من الدقة، وقد أثبت معرفته التجريبية والعلمية في هذين الكتابين، أي كتب "الجماهر في معرفة الجواهر"، ورسالته في المعادن.

إيمانه بقوانين الطبيعة المطردة

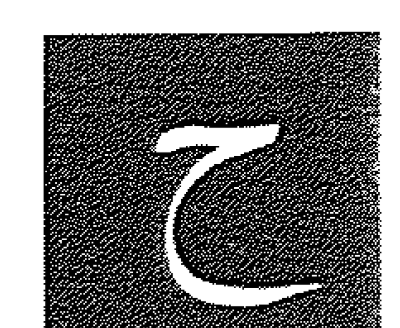
ولا ننسى إيمان البيروني -وهو العالم الطبيعي الدقيق- بقوانين الطبيعة المطردة. فقد كان يؤمن إيمانا عميقا بوجود قوانين طبيعية ثابتة، قد بثها الله تعالى في الكون وجعل الخليقة تسير بمقتضاها وهي مسخرة في ذلك دائما لا تتخلف. وهو ما يتضح مثلا في قوله: "العلل التي ليست بأجسام كالأشياء التي يسميها الفلاسفة "الطبيعة" و"العقل" و"العلة الأولى" لا تنقل النظام إلى اللانظام، بل شأنها أن تنقل اللانظام إلى النظام، أو تمسك النظام على النظام".

ولذلك يقول أحد المتخصصين في هذا العلم: "إن العلماء المسلمين قد أضافوا لعلوم الأرض مواد علمية وآراء جديدة في الظواهر الجيولوجية من قرون عديدة قبل "جيمس هاتون" و"وليم سميث" رواد الجيولوجيا الغربية، وأن الباحث المتأمل لأقوال العلماء المسلمين مثل البيروني ولأقوال "سميث" و"جيمس هاتون" في علم الطبقات مثلا، يرى التقارب بين الرأيين، مما يبعث على الشك في أن علوم المسلمين كانت بين أيدي الأوربيين إبان نهضتهم العلمية". ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الطريق السريع
المسلك والسالك

أ.د. عمار جيدل *



حدد الشـارع الحكيم معالم الطريق السـريع للعروج إلى رباط العبودية لله تعالى، المسـلكِ المحقّق للمعاني الإنسـانية المعايَنة في التصرفات قـولا و عملا وخلقا؛ فليسـت كلمـاتٍ للتباهي في المجالس واسـتعراض ألفاظ وفقراتٍ مستلة من كلام الغير دون إسنادها إلى أهلهـا -وفي هذا التصرف ما فيـه من الناحية الأخلاقية-، لأجـل ابتزاز أهل الجاه والمال المتعلقـين بأهل الفضل بالتماس مع أهلهم -أهل الفضل- كأن التماس بهم مصيدة لأهل الفضل والمتعلقـين بهم. فكم من متماس مع أهل الفضل لا فضل له ولا فضيلة، يَعرف تصنعَه أقربُ الناس إليه، وخاصة في الأماكن التي لا يتقنع فيها (الأسرة، الجيران، والإخوة، والطلبة، من هم تحت سلطته...) رغبة في الهيمنة على بصائر وأبصار الملتفين طمعا في رغيف إضافي أو وظيف.

معلوم أن شخصا بالمواصفات الآنف ذكرها يُعدَم المطية التي تبلّغه المقصد المدّعَى (المشـيخة والقطب والمربي والمسلك)، لهذا يضطر أن يترجل في طريق سـريع لأنه لا يملك من الخصال ما يخوّل له نيلَ فضل الله في اكتساب مطية سريعة.

تُلتمس السـعادةُ في الدارين من الطريق السريع المتميز عن سـائر الطرق بمواصفات التجدد الذاتي المستمر المعبر عن الإيمان والإسـلام والإحسان في الوقت نفسـه، وذلك وفق الدلالات الاجتماعية المثمرة لتصرفات منضبطة بالشرع قابلة للمعاينة.

طلب أحد السـالكين من الإمام الرباني-مجدد القرن الثاني عشر الهجري- طريقا سريعا في الاسترشاد، فقال الشيخ كلمته المشـهورة: "وحّد القبلة". ومعناها اجعل القرآن الكريم أستاذك الحقيقي، على قول الأستاذ بديع الزمان، الذي يقر في مقام آخر أن شعاع السنة المطهرة هو الإكسير النافذ. فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي الطريق السـريع طريق النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها.

ميزات الطريق السريع

يتميز الطريق السريع بانتظام الموجودات، وهو طريق حري بأن يكون أساس النظرة الإسلامية والإيمانية والإحسانية للكون في عناصره المادية والمعنوية. فيعم التصورُ والتعامل الإحساني العوالَم كلها، وهو -زيادة إلى ما سلف- طريق الفطرة واليسر والواقعية، فليس طريق نخبة. ولهذا لا تعقيد فيه، طريق قصير واضح لا يزيغ عنه إلا هالك، جالب للسعادتين الدنيوية والأخروية.. جامع بين القلب والعقل، مؤسس لفكرة التمحيص والمراجعة المستمرة للمكاسب الروحية والمعرفية والعملية على حد سواء. فليس من مسالكه إسلام القلوب والعقول لآخرين، إنما إسلامها لله تعالى، وخوِّلت له هذه الصفةُ استحضار المضامين الاجتماعية للإحسان.

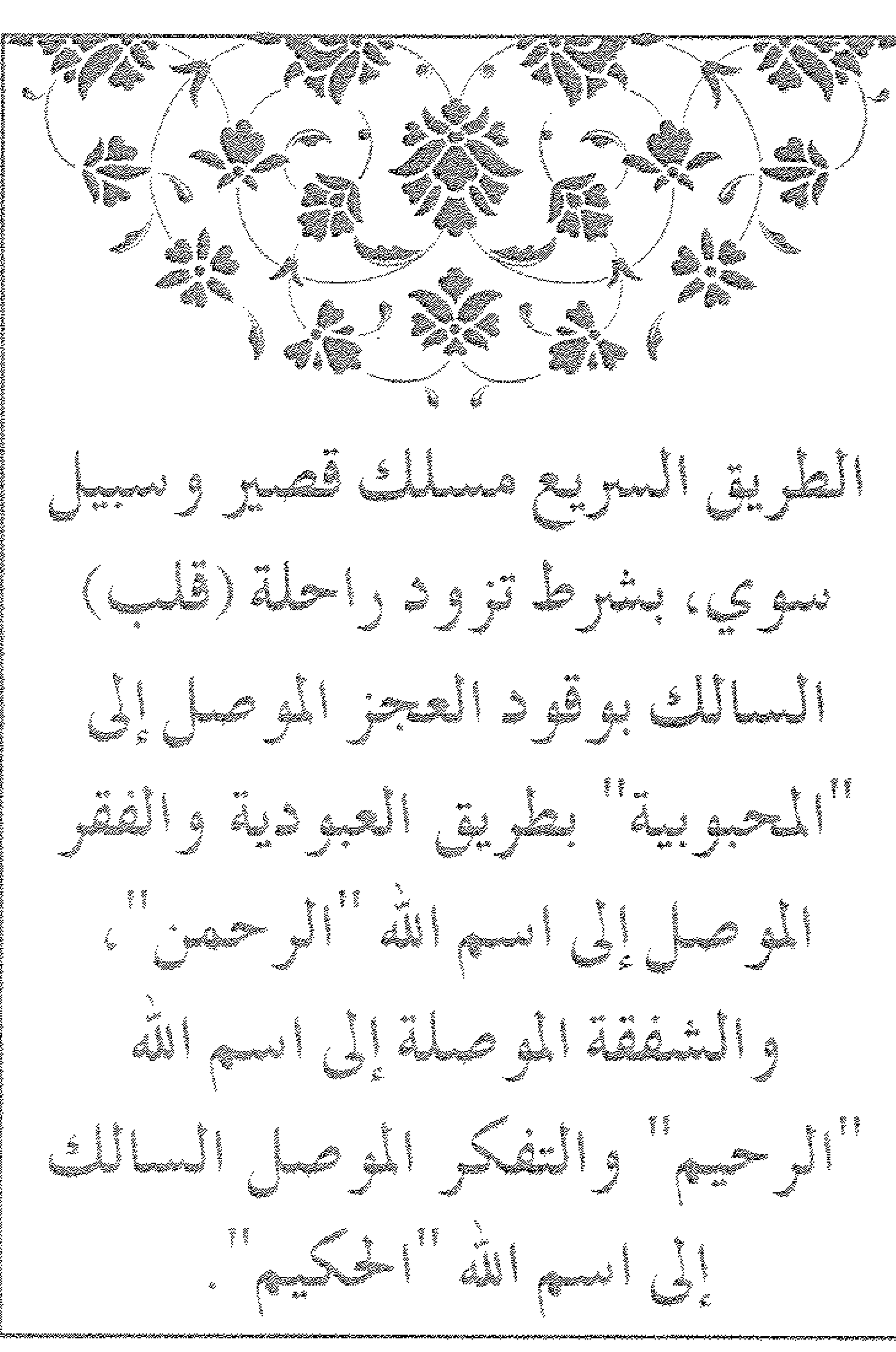
معرفة الطريق السريع لا يجدي نفعا ما لم يكن السالك راكبا مطية وقودها العجز والفقر والشفقة والتفكر. ولا يذهبن بك سوء الفهم إلى الخطأ؛ فالمقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس، كما قال الأستاذ بديع الزمان: "الإحساس بالعجز مفتاح رئيس لفعالية العبادة في حياة المؤمن، وهي إضافة إلى ذلك أساس الدعاء، واكتشاف الإنسان ذاته العاجزة".

العجز بمعزل عن الإيمان موت مستمر وداء ملازم، علاجه وباعثُ الحياةِ فيه بإذن الله الإيمانُ. ذلك أن أقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الإطلال من نافذتي "العجز والفقر" اللتين تتفتحان بتمزيق المرض المادي لحجاب الغفلة، واللتين جُبلَ الإنسان عليهما.

يؤسِّس العجز والفقر في الطريق السريع للشفقة على خلق الله، وكلما تزايدت تنبسط الروح، وتدفع إلى الاستكثار من الخير، وينعش نموها خدمة البشر وتدفع إلى التعاون والتعارف؛ وأما الشفقة الناشئة من الغفلة والمبنية على توهّم المالكية فبتزايدها ينقبض الروح ويتألّم القلب.

تربط الشفقةُ القلبَ بالله سبحانه ليوصل صاحبَه إلى الله جل وعلا بأقصر طريق وأصفى شكل، وبلا مشكلات، مؤسسا على التفكّر الإيماني؛ فالإنسان بالتفكّر المتعبّد يصبح إنسانا حقا، يذيب الغفلة به ويظهر الكون أمام بصره وبصيرته شاهدا واحدا موحدا دالا على حقيقة تعرف بوحدة الشهود في الدلالة على الطريق السريع.

الطريق السريع مسلك قصير وسبيل سوي، بشرط تزود راحلة (قلب) السالك بوقود العجز الموصل إلى "المحبوبية" بطريق العبودية، والفقر الموصل إلى اسم الله "الرحمن"، والشفقة الموصلة إلى اسم الله "الرحيم"، والتفكر الموصل السالك إلى اسم الله "الحكيم". قال بديع الزمان مرددا لما قاله أحد الصالحين: "لقد رأيت أحد المتقين من أهل القلب في زاوية "التكية" يزاول السير والسلوك، ولكن بعد مضى بضعة أيام شاهدته في المدرسة بين طلاب العلوم الشرعية، فسألته: لِمَ تركت الزاوية التي تفيض الأنوار وأتيت إلى هذه المدرسة؟ قال: هؤلاء النجباء ذوو الهمم العالية يسعون لإنقاذ الآخرين مع إنقاذهم لأنفسهم بينما أولئك يسعون لإنقاذ أنفسهم وحدها إن وُفقوا إليها. فالنجابة وعلو الهمة لدى هؤلاء والفضيلة والهمة عندهم"، وهؤلاء يصدق فيهم ما قاله أستاذنا محمد الهادي الحسني نقلا عن العلامة محمد المبارك في قولته المشهورة: "تصويف السلفية وتسليف الصوفية"، بشرط أن يكون لكل منهما مطية (قلب) يسعفه في نيل المراد، لأن من افتقد الراحلة لم يبلغ المراد مهما بالغ في مدحه، ولا يمكن أن يرى عليه التواضع والتلطف الحقيقي المؤسس على الشفقة بالخلق وعلى رأسهم المخالفين في الملة فضلا عن الموالفين فيها، وإن تحلى بها فهي لضرورات اقتضتها حيلة التعلق بالدنيا بعنوان الآخرة، مخالفا بها مسلك الصالحين، في قولهم: "الحيلة في ترك الحيل". ■



الطريق السريع مسلك قصير وسبيل سوي، بشرط تزود راحلة (قلب) السالك بوقود العجز الموصل إلى "المحبوبية" بطريق العبودية والفقر الموصل إلى اسم الله "الرحمن"، والشفقة الموصلة إلى اسم الله "الرحيم" والتفكر الموصل السالك إلى اسم الله "الحكيم".

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

القرآن... نوره في سماء القلوب يتوهج، وعليه الأرواح تحوم، وبه تهتدي... حقٌ وحقيقة كله، لا يُسْبَرُ غورُه، ولا يدرك وسْعُه... من يعشه ير جمال الوجود في زهرة، وطوفان الأرض في قطرة..

* * *

كلمات الله في معركة السلام

أ.د. فريد الأنصاري *

لا تحرير للأمة اليوم في معركة هذا العصر إلا بالقرآن، لأن طبيعة المعركة الجديدة قائمة على "الكلمة"، والقرآن العظيم هو الكلام القاهر فوق كل كلام. ولكن بعد أن نفهم السؤال الإشكالي: ما حقيقة "الكلمة"، وما دورها في معركة العصر الجديدة؟

إن "الكلام" ليس "قولا" وحسب؛ إذ "القول" دال على كل ملفوظ، سواء أفاد معنى أم لم يفده، كما هو معلوم من تعريفات النحاة، بينما "الكلام" لا يكون إلا لفظا مفيدا لمقصودٍ مراد للمتكلم، سواء أفاد خيرا أم أفاد شرا، على وزان قول ابن مالك: كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقمْ.

ومن هنا ننطلق من هذا التقعيد النحوي المدرسي البسيط لنجزم بعد ذلك بأن الكلام -على هذا المعنى المؤصل في قواعد العربية- لا يكون إلا فعلا جاريا في الواقع، وحدثا جالبا لأثرٍ في التاريخ.

إن الكلمة -أيّ كلمة- إنما هي فعل من الأفعال، هذا على المستوى الوجودي. وتأمل كيف أن الخطاب مهما يصدر من منتجه فإنه لابد يؤثر في الواقع ولو على المستوى النفسي ابتداء، ثم يكون له بعد ذلك أثر فعلي. وأقل الأثر أن يعود على صاحبه بالخير أو بالشر. ولا يتصور في الواقع والعادة الجارية في الخلق كلام بلا أثر مطلقا ألبتة. وهذا يبدأ من مستوى الخلق والإنشاء والتكوين، مما ينسب إلى الله ﷻ من الأفعال والأقدار، إلى مستوى الفعل الإنساني والإنجاز البشري في الواقع والتاريخ.

فمثال الأول: قول الله تعالى فيما عَرَّف به حقيقةَ نبيه عيسى عليه السلام، واصفا إياه بأنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾(النساء:١٧١). فكان عيسى ههنا هو "كلمة الله" جل علاه، أي إنه راجع إلى أمره القدري التكويني. إنه إذن خَلْق الله لأن "الكلمة" راجعة إلى فعله تعالى المتعلق بتدبير شؤون الربوبية خلقا

وتقديرا وقَــيُّومِيَّةً. وهذا المعنى شامل في كل خلق أو تصرف إلهيّ، وفي كل قضاء وقدر. لا شيء من ذلك كله يخرج عن "كلمة الله".

ومما يدل عليه أيضـــا أن "الكلمة" في القرآن أمرٌ واقعٌ حتما قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَــبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(هود:١١٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(هود:١١٩). ومثْلُ هذا في القرآن كثير لمن شاء أن يتتبعه. فكل ذلك ونحوه مما تضمن ضميمة ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ دال على معاني الخلق والإنشاء والتكوين والتصيير، وسائر أفعال القضاء والقدر الإلهيين. وليست "الكلمة" قولا يقال لمجـــرد القول وكفى، بل هي إنجاز حتمي لا يتخلف توقيعه أبدا. فمتى قيلت "الكلمة" -بهذا السياق- كان معناه أنها فُعِلَتْ. ومن هنـــا لم تخرج "كلمة الله" عموما عن معنى فعل الله جل وعلا، وهو ﷻ لا يخلف القول ولا الميعاد.

أساس الناطقية والاستخلاف

ومثال الثاني قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١). فالأسماء -مهما اختُلف في تفســير معناها- فإنه لا اختلاف في أنها "كلام" بالمعنى الشــرعي والوجودي للكلمة، ولا يمكن أبدا أن تتصور "الأسماء" على أنها لغو أو عبث. فهي أســاس الناطقية التي فُطِر عليها الإنســان، والتي تُشكل جوهرا أساسيا من ماهيته الوجوديــة ووظيفته الكونية، والتي كانت -بعد ذلك- أســاس الاستخلاف له في الأرض. ومثلها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن:٣-٤). ومن هنا كانت مسؤوليته عما يتكلم به كبيرة جدا، وهي مســؤولية لا تخــرج عن عموم الأمانة التي أنيطت بالإنسان في قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾(الأحزاب:٧٢). فالكلام البشري كله محصيّ عليه كلمةً كلمةً، يســتوي في ذلك إنشـــاؤه وخبره، لأنه كله يوزن بميزان التحقيق بين الصدق والكذب.

وعليـــه؛ فتعريف البلاغيين "الخبر" في الـــدرس البلاغي بأنه "ما احتمـــل الصدق والكذب" -بزعمهـــم- تعريف غير مانع أبـــدا، بالمعنى الوجودي لكلمة "خبر"، لا بالمعنى اللغوي العادي. فتعاريف البلاغيين راجعة إلى موازين المنطق الأرسطي الصوري، وقد عُلِمَ ما فيه من خلل منهجي في تحديد المفاهيم والتصورات، إذ هو قائم على تحديد الماهيـــات بحدود عقليات خاضعة لمنطق العقل المجرد عـــن معطيات الوحي، ولا يمكن لمثل تلك الموازين إلا أن تكون "صورية" فعلا كما عبروا هم أنفسهم. فإلى أي حد تطابق الصورة الحقيقة؟ تلك هي المشكلة. ومن هنا فحد "الخبر" عندهـــم هو وإن جَمع المقصودَ فإنه لا يمنع دخول غيره فيه، أي معنى "الإنشـــاء"؛ أرأيت لو أن شخصا نادى غيره، أو أمَرَهُ، أو نهاه، وهو لا يقصد ذلك ألا يكون كاذبا؟ بلى والله! فإنما الكذب مخالفة العبارة لمقتضى الواقع، وهذا منه؛ لأن المنادِي، أو الداعي، أو النادب، أو المستغيث، أو الآمر، أو الناهي.. إلى آخر ما صنفوه في معنى الإنشاء؛ كل ذلك إذا لم يصادِف إرادةً في نفس المتكلم وقصداً فهو كذبٌ محض. فالإنشاء إذن -بهذا المعنى الوجودي- يحتمـــل الصدق والكذب أيضا. وهل يتوجع المتوجع لغير وَجَع؟ وهل يستغيث المستغيث لغير فَزَع؟ فإن قصد به معنى آخر من مجاز وغيره، كان ذلك المعنى الجديد المعدول إليه هو أســـاس الصدق والكـــذب بعد ذلك، وإنما العبرة بالخطاب قصدُ المتكلم وإرادتُه. فلا شـــيء من الإنشـــاء إلا وهو يحتمل الصدق والكذب أيضا.

حظ اللسان في الأحكام

وأزعم أنه لا شيء من الكلام الطبيعي للإنسان إلا وهو يحتملهما، ومن هنا قول الله تعالى الجامع لكل ذلك: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨).(١) وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْــفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِــمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(الكهــف:٤٩). ويدخل في ذلك قطعا كل ما تلفظوا به من قول. ولذلك فقد نال اللســـان الحظ الأوفر في الاعتبار في أحكام الشــريعة؛ فكانت العقود كلها سواء كانت عقود الإيمان والإســـلام، من بيعة شــرعية، أو تعهد ومعاهدة، أو نـــكاح أو طلاق، أو كانت من المصارفـــات المالية من بيوع وإجارات وأكرية وغير ذلك مما يمكن أن يتصوره الذهن كلها إنما هي عند التحقيق "كلام" وليست مجرد لعب أو لهو من الأقوال، لأنهـــا قائمة على معنى "مفيد"، أي مقصـــود مراد للمتخاطبين؛ بما فيها من إيجاب وقبـــول وما جرى مجراهما من معاني التراضي والإقرار. ومن هنا قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(المائدة:١)، وقوله ســبحانه في سياق بيان أن الإنســـان محاسب على كل ما يصدر منه من الأقوال، مما أوردناه قبل قليل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨). وفي

الحديث: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم" (رواه البخاري). ومن ثَمَّ لم يكن جِدُّ رسول الله ولا مزاحه ﷺ إلا حقا وصدقا، ولم يكن فيه كذب قط، حاشاه، عليه الصلاة والسلام.

إن الكلام مؤثر جدا في إنتاج الفعل الإنساني بل هو عين الفعل الإنساني، ولا شيء من فعله إلا وهو حاصل بالكلام مباشرةً أو نتيجةً أو توجيها أو تفاعلا، وإنما بدء التكليف الإلهي للإنسان كَلِمَةٌ، وآخره كَلِمَة، منذ قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٥٩)، إلى أن علَّمَهُ ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إلى أن أنزل عليه "كلامه" القرآن الكريم.

وأول الوزن وزن الكلام

فالذي لا يعير للكلام -أي كلام- الخطورةَ التي يستحقها فهو جاهل بحقائق الدين وحقائق الوجود معا. وكثير من العقوبات في الإسلام والحدود والتعازير والآثام.. إلخ إنما ترتبت شرعا عن مجرد "كلام" يتكلم به الإنسان باطلا، بدءا بكلمة الكفر إلى كلمة القذف، إلى ما شابه ذلك من كلمات الغيبة والنميمة وعبارات السخرية والتنابز بالألقاب وهلم جرا.

كما أن بدء الخير كله "كلمة" انطلاقا من كلمة الإخلاص: "لا إله إلا الله"، وما يتممها من "شهادة أن محمدا رسول الله"، إلى أبسط كلمات الإيمان والإحسان، كإفشاء السلام، وتشميت العاطس، وإرشاد السائل... وما بين هذا وذاك من كليات الكلام وجزئياته؛ فإنه جميعا يَؤُول -في النهاية- إلى بناء عمران الحياة الإنسانية، القائمة على العدل والسلام؛ لأن ذلك كله هو الذي ينتج فعل الخير بمعناه المطلق، ويحقق غاية الوجود البشري في الأرض. ومن هنا كانت أول نعمة امتن الله بها على الإنسان بعد نعمة الخلق أنه علمه البيان. ولذلك كان القرآن بين يديه -وهو كلام الله- الأداة الكلامية الفاعلة لإقامة الحياة في الأرض بالقسط والميزان. فتدبَّرْ قولَه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۞ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۞ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:١-٩). وأول الوزن وزن الكلام، الذي هو حقيقة "البيان"، فإذا خسر خسرت كل الموازين بعده بدءا بموازين السياسة -بمعناها العام- وما تتضمنه من موازين الإدارة والاقتصاد، إلى موازين التجارة وسائر المصارفات المالية والاجتماعية الجزئية والكلية... إلى كل طبائع العمران وتجليات الحضارة البشرية، إلى كل ما يمتد إليه ذلك من فقدان توازن الحياة الإنسانية والبيئية والكونية.

اللغة وصناعة الحياة

إن اللغة تصنع الحياة أو تدمرها. ومن هنا كانت مسؤولية الكلمة في الإسلام جسيمة جدا، والإعلام اليوم هذا الذي يسمونه "السلطة الرابعة" ليس في واقع الأمر إلا السلطة الأولى، لأن المتسلط على الخلق، الحاكم أمرهم بالحق أو بالباطل، إنما وصل إلى مبتغاه من التسلط والتحكم بالكلمة. فحتى عندما يكون الأسلوب المتبع في التسلط قهريا فإنما صنع الطاغية أدوات قهره وتجبره في البداية بالكلمة، ولا شيء يبدأ قبل الكلمة، فَبَدْءُ الوجود والخَلْق والتكوين في القرآن الكريم إنما هو كلمة، إنها كلمتُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ قال جل شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(يس:٨١-٨٣).

إن الكلمة هي التي تصنع الصورة وتنتجها، بل هي جوهرها وحقيقتها؛ فلا يغرنك أن الإعلام اليوم صار يرتكز أساسا على الصورة، فإنما هذه -رغم خطورتها- بنت تلك في نهاية المطاف. ولولا الكلمات لما كانت الصور في الوجود أصلا. أضف إلى ذلك أن الصورة تُعْرَضُ حينما تُعْرَضُ في العادة الغالبة مسبوقةً بالكلمة أو مقرونة بها أو ملحقة بها أو كل ذلك جميعا. فلا تأتي إذن إلا من خلالها. وحينما نتوهم أننا نتلقى صورا بغير كلمات، فإنما هي لعبة الكلمة المتخفية خلف الصورة. إنك لا تسمعها، نعم؛ ولكنها تتدفق إلى خواطرك في صمت، وتسكن اعتقادك بقوة. ومن ذا الذي قال إن الكلمة هي الصوت فقط؟ إنما الكلمة "مفهوم" يتواصل به الإنسان عبر اللغة الطبيعية، الصوتية أو الإشارية أو الصورية أو السيميائية، إلى غير ذلك مما في الوجود من رموز وأشكال نُصِبَتْ للدلالة على معنى. كل ذلك كلام.

الكلمة هي الوجود

إن الكلمة هي الوجود وما سواها صُوَر. ومن هنا ترى عمق الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١)؛ فانظر -في ضوء ذلك- إلى هذا الكلام الإلهي العظيم، كم هو فعلا يضرب في

عمق الحقيقة، وإلى أي حد هو يوغل في مجاهيل الوجود...

إن الإعلام اليوم كما كان من قبل في التاريخ -رغم اختلاف الأشكال والتجليات- ليعتبر أخطر وسائل التحكم، وأرهب أدوات الصراع الحضاري، وأقوى آليـات التدافع العمراني في الأرض.

إن الذين قهروا الناس في الأرض عبر التاريخ لم يكونوا بشرا فوق البشـر في أبدانهم ولا في عقولهم، ولا كانوا "آلهة" في واقع الأمر، وإنما هم "متكلمون" فقط. أسسوا أسطورة من الكلام في أذهان الناس وسحروهم بها، أو ورثوا رصيدا كلاميا عن آبائهم وأجدادهم واستمروا في إنتاجه وتجديده حتى تعيش الأسطورة في شـعوبهم إلى الأبد؛ فكان منهم "ابن الشمس" و"حفيد الرب"، و"وكيل الآلهة"، وغير ذلك من سائر أنواع الكلام مما يدخل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾(الأعراف:١١٦).

وما كان طغيان فرعون في الأرض واسـتذلال أهلها إلا من بعد أن أوهمهم بأنه هو ربهم الأعلى؛ فلم يكن يريهم إلا ما يرى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٣-٢٤) ومن هنا لما خالفه قائل الحق من رجاله نطق بقوة فقال، كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩). فكان بذلك مثالا لكل طغيان وتأله وتجبر! ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٤).

إنه قهر القوة والسلطان الباطل، الذي يصنعه -فقط- سحر الكلام. وانظر إن شـئت إلى هذا البيان السحري الرهيب الذي ألقاه فرعون على قومه من بعد ما زلزلت عرشـه آياتُ موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِـينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(الزخرف:٥١-٥٤). وتأمل جدا ما أعقب الله به خطاب فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فهو إنما استخف في الواقع عقولهم.

ولقد قرأت قصة طريفة مترجمة عن الكتابة الفرعونية القديمة رواها أحد أطباء فرعون. وذلك أنه تسـلط ذات يوم على أحد الأغنياء فأراد أن ينتزع منه ضيعته، فلما أبى أن يتنازل عنها نكل به فرعون تنكيـلا، فقطع أيديه وأرجله من خلاف، وألقاه على حافـة الطريق، فصادف أن كان الطبيب مارا بعربته فوجده يئن في الظلام، فلما عرفه رَقَّ لحاله وحمله إلى بيته، ثم عالجه من آثار جروح البتر. ثم انقطعت صلته به بعد ذلك إلى أن مات فرعون. ولما كان يوم مراسم التحنيط والدفن على -عادة قدماء المصريين- والكاهـن يلقي كلماته في رثاء فرعون، بما يصبغه عليه من رداء الربوبية المزيفـة والألوهية المدعاة والعظمة المكذوبة، ويذكر من شـيمه ما لا قِبَلَ للبشـر به، إذا بالطبيب يجد من بين الحاضرين الرجـل الغني الذي نكل به فرعون من قبل، وقطع أيديه وأرجله من خلاف، وجده يبكي بحرارة ويقول: ما كنتُ أعلم أن فرعون كان إلها مقدَّسا إلى هذا الحد، وكأنما يبكي ندما على ما فرَّط في جنب فرعون، ولم يكـن له من الطائعين ومن عباده الصاغرين.

إن الإنسان لَمّا يتوهم أنه مغلوب على أمره، أو أنه لا يستحق أن يكون حرا يخضع بصورة تلقائية لمن غلبه بهذه الأكذوبة.

من هنا كانت معجزة هذا العصر هي القرآن، القرآن بما يملكه من قوة خارقة في تحرير الإنسان من عبودية الشهوات التي تـثقله إلى التراب، وتملي عليه تقديس الحياة الفانية، وتخضعه لمن يهدده بالقتل والتشـريد فيها. القرآن بما يملكه من سـلطان رباني على النفوس يجعلها تبصر حقيقة أنه لا إله إلا الله الواحد القهار حركة حية أبدية في الكون وفي التاريخ، وأن كل استكبار من دونها هو محض افتراء وهـراء. القرآن بما له من خاصية التحويل الوجداني العميق لمسار الإنسان؛ من جِرْمٍ جزئي ضئيل يدور في فَلَكٍ قصير من متاع الدنيا الشـهواني؛ إلى كائن كوني كبير يدور في فَلَكِ الملكوت الرباني الفسـيح، في سيره العظيم إلى الله.. حيث يرى بعين القرآن واستعلاء الإيمان كيف أن كيد الشيطان كان ضعيفا حقَّ ضعيف، وكيف أن المعركةَ كونيةٌ، يقودها الله رب العالمين. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.

الهوامش

(1) قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨) هو من العام الذي أريد به الخصوص، إذ عُلِـم في الدين أن القول غير المبني على قصد لا يدخل في دائـرة المحصي على ابن آدم، ولذلك فالقول المقصود هنا هو الكلام المفيد قصداً ومعنىً.

أنتَ للإحسان أهلٌ

أنس إبراهيم الدغيم *

تُبْ على قلبي فإنّي ... غارقٌ في حسن ظنّي

طالما أنأى وتدنو ... فعساكَ اليوم تُدني

كلّما جئتَ إليّا ... عاد قفرُ القلبِ ريّا

وسمعتُ الرّوحَ تشدو ... (طلع البدرُ عليّا)

ما شدا القُمريُّ إلا ... هاجَ دمعي فاستهلّا

ليس "قيساً" كلُّ من لم ... يحترقْ في نار "ليلى"

كمِ تجلّيتَ عليّا ... واحتواني منك نورُ

قائلاً لي في عتابٍ ... (يا حبيباً لا يزورُ)

كلّما النور تجلّى ... قابَ قلبي وتدلّى

طار قلبي في سناهُ ... هاتِفاً أهلاً وسهلا

كلّما آنستُ نارا ... طار نحو النّور قلبي

جذوةٌ تحيي فؤادي ... إنْ تكنْ من طُورِ ربّي

زادَ يا مولايَ وَجدي ... من تسابيحي وحمدي

لا تدعْني يا حبيبي ... بينَ إقبالٍ وصدِّ

يا حبيباً لا يراني ... حيث يرجو أنْ أكونْ

فاحفظِ اللّهمّ نفسي ... من ضلالٍ وفتونْ

كلُّ ما أبغيهِ وصلٌ ... منكَ يُدنيني إليْكْ

أكبرُ الآمالِ عندي ... أنْ أُرى بينَ يديْكْ

بينَ بُعدي واقترابي ... ما يشاءُ العاذلونْ

إنْ تكنْ حسبي فإنّي ... غالبٌ في كلِّ حينْ

غُلّقتْ كلُّ المسالكْ ... غيرَ بابٍ ما يزالْ

قلتُ يا مولايَ خُذني ... قال يا عبدي تعالْ

كلُّ ما أخشاهُ قربٌ ... منكَ يُنسيني أنيني

في طويّاتِ اللّيالي ... واحتراقي وحنيني

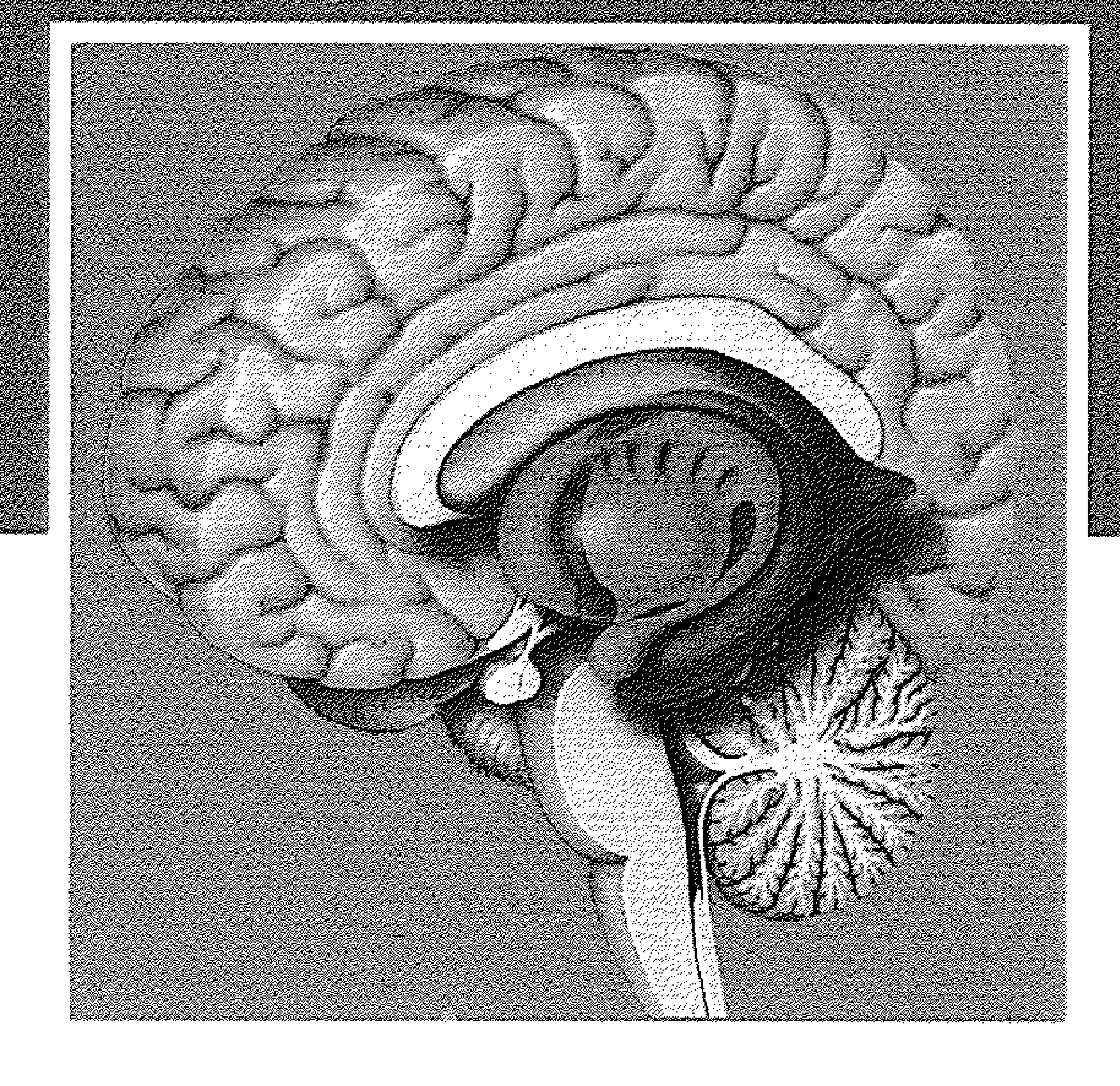
أغنِني يا ربُّ بالحُسـ ... ـنى و جمّلني بفضلكْ

أنتَ للإحسانِ أهلٌ ... وأنا من بعض أهلكْ

(*) شاعر سوري.

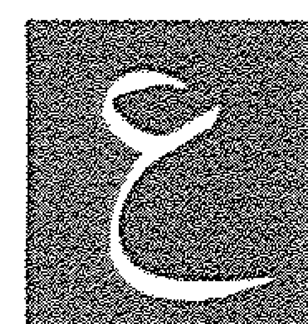
تعرّف إلى ذاتك، وبنورها استنر، فإن عرفتها عرفت ربك.. أما سيئو الحظ، فلا أعماقهم لمسوا، ولا جوهرهم أدركوا، ولا ربَّهم عرفوا... مثلهم كمثل حمّال على ظهره كنز ينوء بحمله لكنه لا يعرف قيمة ما يحمله... ففقيراً يبقى وتعيساً يظل وشقياً يموت.

***



الجهاز العصبي يتكلم

أ.د. عرفان يلماز*



عزيزي عبد الله...

أنا من أروع الأنظمة والأعضاء التي شرحتْ لك نفسها؛ فأنا الذي أؤمّن الارتباط بين جميع الأنظمة والأعضاء لتكمل وظائفها. فكما تنتشر الأوعية الدموية في جميع أجزاء الجسم لنقل الأُكسجين؛ كذلك أقوم أنا بتغطية جميع أجزاء جسمك كشبكة لكي تكون على علم بكل ما يحدث. وإذا أُصبتَ بأي خلل أو مرض في أي عضو داخلي قمتُ بإخبارك حالا، بل بحثّك على السعي للعلاج.

و"النظام العصبي" شبكة من الخلايا العصبية، ولكن هذه الشبكة مخلوقة ومرتبة بشكل معقد جدا. فأهم المراكز الرئيسية موضوعة داخل القحف قريبة من بعضها البعض على شكل كتل كبيرة. أما امتدادات النظام العصبي والمراكز الفرعية الأخرى فمنتشرة وموضوعة في مناطق مختلفة من الجسم.

ولكي تفهم هذا النظام بشكل أسهل وأفضل فمن المفيد تقسيمه إلى قسمين. فالقسم الأول هو المركز العصبي الذي يتكون من المهاد البصري، وما تحت المهاد البصري، والمخيخ، والنخاع الشوكي. أما القسم الآخر فهو النظام العصبي المحيط والشبيهة بكوابل الألياف الضوئية.

والدماغ يتكون من قسمين كرويين كبيرين، بالإضافة إلى ساق الدماغ. وكما أن المركز يكون أهم شيء في جميع الأنظمة، فكذلك المركز العصبي في جسمك الذي يتكون من فصي الدماغ والمخيخ وساق المخ مهم جدا. ويأتي بعد ذلك في الأهمية الحبلَ الشوكي الذي يعتبر أيضا من النظام المركزي للجهاز العصبي، ولكنه لا يوجد داخل القحف، بل ضمن القناة الداخلية للسلسلة الفقرية. وإذا أصاب الحبلَ الشوكي أيُّ ضرر فهذا يكون مهما، لقربه من المركز العصبي. وأي ضرر أو جرح يصيب الأقسام المتكونة من الأعصاب الخارجة من المركز إلى الخارج يؤدي إما إلى شلل أو إلى عطل في وظيفتها، ولكنه لا يؤدي إلى خطرِ فقد الحياة.

أرقام مذهلة

عزيزي عبد الله... والآن سأعطيك بعض الأرقام التي ستذهلك؛ إن مجموع طول الشرايين الدموية يبلغ ١٢٠ ألف كم (أي يبلغ هذا الطول ما يكفي للدوران حول محيط الكرة الأرضية ثلاث مرات)، بينما يبلغ مجموع طول الأعصاب عندي ٧٨٠,٠٠٠ كم، وهذا الطول يبلغ ضعف المسافة بين الأرض والقمر. و٤٠٠,٠٠٠ كم من هذا الطول هو مجموع طول الأعصاب المنتشرة في أجزاء الجسم. أما الباقي (أي ٣٦٨,٠٠٠ كم) فهو مجموع الأعصاب العائدة إلى المركز العصبي. ويقرب عدد

المعلومات الواصلة من خلية واحدة مائتي ألف معلومة. وهذا يعني أن مئـــات الآلاف بل الملايين من المعلومات تمر من داخل خليتي من المركز إلى المحيط، ومن المحيط إلى المركز. وأنا أملك ثلاثين مليار خلية؛ عشرة مليارات منها في محيط القشرة، وعشرة مليارات تقريبا منها في قشرة المخيخ، أما الباقي فيشكل أجزائي الأخرى. ومن أجل الإيضاح أقـــول: يملك دماغ البعوض مأة ألف خلية، ودماغ الفأر عشرة ملايين خلية. ولكي يتم تبادل المعلومات بين خلاياي البالغة ثلاثين مليار خلية هناك نقاط اشـــتباكات عصبية يبلغ عددها مائة تريليون نقطة. أما عدد المخابرات والاتصالات التي يمكن لهذه الاشـــتباكات العصبية إجراؤها مع بعضها البعض فيزيد على عدد ذرات الكون.

في المرحلة الأولى لأي فعالية ذهنية تدخل ما بين ١٠-١٠٠ مليون خلية في النشـــاط الذهني، فإذا استمرت الفعالية وتعمقت طفر هذا العدد إلى أرقام كبيرة. ويتم تبادل التنبيهات والرســـائل بين فصي الدماغ بعدد ٤ مليار تنبيه في الثانية الواحدة.

وبينمـــا كنتَ جنينا بعمر بضعة أســـابيع كانت بنيتي عبارة عن ماء بنسبة ٩٢٪، وعندما ولدتَ أصبحتْ هذه النسبة ٩٠٪ وعندما تصل إلى سن النضوج تصبح النسبة ٧٧٪، فـــ ٧٧٪ من الماء والباقي عناصر مختلفة.

إن الله تعالى بقدرته وضعني في رأســـك، وبواســـطتي تقوم أنت بإنشاء الحضارات وبالاكتشـــافات، وبالتفكر في خالقك، وتـــدرك معنى الكون والحياة. وأنا الوســـيلة لـــك في إدراكك وشـــعورك لمختلف المناظر والأصوات والروائح والطعوم، وذلك بتقييم الموجـــات الكهربائية التي تَرِد إليّ بأطوال وترددات مختلفة من حواســـك. فكل شـــيء تعمله يمر أولا من عندي، وأنت لا تحس ولا تشـــعر به؛ فعندما تمشي أو تأكل أو تتكلم أو تنام تأتي لي رســـائل ومعلومات من كل نقطة في جسمك. وبتقييم هذه المعلومات أعطي أجوبة مناسبة لها.

عزيزي عبد الله... إن ما تعرفونه عني ليس إلا شـــيئا يسيرا؛ فكل قسم من أقســـامي له وظائف حيوية وواسعة جدا، ودعني أخبرك بأهم الوظائف التي يقوم بها كل منها بشكل موجز:

المخيخ

هو المركز الذي يؤمّن التوازن وتَناغُمَ الحركات دون أي خطأ أو انحراف. علاوة على أن هذا القســـم لا يملك شعورا إراديا، فإن تغيير وظائفه بشـــكل إرادي غير ممكن. إن بَصَلة الحبل الشوكي (النخاع المســـتطيل) التي تشـــبه الهرم تصل القسم الأوسط من الدماغ. وهي تشـــكل مع جسر "فارول" ســـاقَ الدماغ الذي يدخل من الثقب الخلفي الموجود في القحف إلى السلسلة الفقرية. توجد هنا مراكز عديدة تقوم بضبط نبض القلب وتنظيم التنفس وضبط فترات الهضم وغيرها من الفعاليات المســـتقلة للأعصاب. إن الســـيطرة على ردود الفعل، وتنظيم الجو الداخلي للأعضاء والســـيطرة على الحركات تكون بالمخيخ، وترتيب الأحاسيس الآتية من الأعضاء الداخلية والسيطرة على بعض الوظائف المهمة كالانفعالات والنوم يتم بالاستعانة بالمهاد البصري.

المهاد البصري

يقـــع المهاد البصري بين بصلة الحبل الشـــوكي وفصي الدماغ، ويقوم بمهمة مثل مهمة محوِّلة اتجاه القطارات في السكك الحديدية أو مهمة المحطات الثانوية. وتقوم هذه المنطقة بجمع كل التنبيهات الآتية إليها من الحواس ما عدا الشم، وتنقل المعلومات إلى "القشرة الدماغية العلوية" لكي تنعكس إلى المســـتوى الشـــعوري، مثل التمييز بين الإحساس باللمس والألم والأصوات حيث يتم تقييم هذه الأحاسيس بشكل شـــعوري. ويُعتقَد أنه يقوم أيضا بتنظيم حـــالات الصحو واليقظة والنوم، وأنـــه يلعب دورا في التغيرات الشعورية التي تظهر.

ما تحت المهاد البصري

هـــو مركز مهم يقع تحت المهاد البصري ويقوم بالســـيطرة على الأحاسيس الجنسية والآلام ومشاعر الاستحسان والجوع والظمأ وضغـــط الدم وحرارة الجســـم والعديد مـــن وظائف الأعضاء الداخلية. وله وظيفة هامة في تنظيم إفراز الهورمونات. والأليافُ العصبية المتشـــابكة التي تأتي إلى هذا المركز من فص الشم عندي ومن المهاد البصري ومن فص الجبهة تصل إلى المراكز التي تسيطر على الفعاليات المستقلة وإلى البنية الشبكية الشكل.

ومع أن فصّي المخ يتشابهان تماما في منظرهما إلا أن هناك بعض الفروق بين وظائفهما؛ فمثلا المراكز المسؤولة عن النطق عند أكثر الناس في الفص الأيسر، بينما المناطق التي تسيطر على الإحساس بالمكان في الفص الأيمن. وعندما تحتاج إلى إجراء عملياتٍ منظمة (مثل الجمع والطرح أو عند تزرير قميصك) تقوم باستعمال الفص الأيسر. أما إن كنت تفكر بالاستعانة بالرسم فتستعمل الفص الأيمن. ولولا الألياف العصبية الغليظة التي تربط بين فصي المخ لاستطعت قراءة كلمة "السمكة" ولكنك كنت ستعجز عن تمثل السمكة أمام عينيك. لذا لابد من استعمال الفص الأيمن.

المادة السنجابية

هي القشرة التي تغطي فصي المخ وتحتوي على تلافيف والتواءات كثيرة. والقشرة تحتوي على القسم الأكبر من خلاياي. أما المادة الموجودة تحتها فلونها أفتح، ويطلق على المنطقة التي توجد فيها امتدادات خلاياي اسم "المادة البيضاء". ومنطقة القشرة (اللحاء) تتكون من ست طبقات، وخلاياها مختلفة. وتشكل مركزا يقوم بتقييم وتحليل التنبيهات الواردة إليها من الحواس، وبالسيطرة على الحركات الإرادية للعضلات وبالتفكير والتذكر والتعلم. والفصان اللذان يشكلان المخ الرئيسي (الكبير) يشكلان ٨٥٪ من جميع الدماغ.

نمو النظام العصبي

عندما ولدتَ كان وزني أربعمائة غم، وفي سنة واحدة وصلتُ إلى ثمانمائة غم. وعندما بلغتَ سن الرابعة كان وزني ١٢٠٠ غم. وتباطأ نموّي بعد السابعة. وعندما بلغتَ العشرين أصبح وزني ١٣٧٩-١٤٣٤غم. أما في النساء فيكون أقل قليلا، وأصل إلى وزني النهائي عند النساء في وقت أبكر مما أصله عند الرجال (المتوسط عند النساء ١٢٣٠-١٣٠٦ غم). وبعد سنوات الشباب أتقلص كل سنة بمقدار غم واحد في المتوسط. وعندما تبلغ الخامسة والسبعين من عمرك أكون قد تقلصت بنسبة العشر بالمقارنة مع وزني عندما كنتَ في سن العشرين. وسبب هذا أن خمسين ألف خلية عصبية تقريبا تموت كل يوم أو تصبح غير ذات فائدة بعد العشرين.

ومع أن خلايا الجسد تملك قابلية تجديد نفسها بعمليات الانقسام وزيادة أعدادها إلا أن الخلايا العصبية ما إن تبلغ العدد المكتوب في قَدَرك بعد مراحل التطور الأولى في الرحم حتى تفقد خاصية التكاثر. ولكن عدد الارتباطات بين الخلايا يزداد، لذا يزداد وزني. وذلك بسبب ما يَرِد إلى هذه الرابطات من الغذاء من الخارج. وعندما يتقدم العمر يقل عدد هذه الرابطات. وفي مرحلة الشباب عندما تَقرأ أو تشاهد أيَّ شيء أو تمر بأي تجارب.. كل هذه الأمور تزيد من عدد هذه الارتباطات. وهذا يؤدي إلى زيادة قابليتي في التفكير. واذا داومت في مرحلة الشيخوخة على هذه الفعاليات الذهنية من قراءة ومطالعة وكتابة، ولم تنقطع عن فعالياتك الاجتماعية استمرت الزيادةُ في عدد هذه الارتباطات.

مناطق الدماغ ووظائفها

عندما نقوم برسم خريطة للقشرة التي تغطي المخ الرئيسي نرى أن هناك مناطق مختلفة للحواس وللفعاليات الأخرى تتكاثف فيها بؤر معينة لها حدود معلومة بمقياس لا بأس به. فمثلا قسمي الموجودُ في المنطقة القذالية الواقعة خلف رأسك تماما هو قسم الرؤية، أما أقسامي الموجودة في منطقة الجبهة فهي للسمع. وعلى اليسار توجد منطقة التكلم (هذا في الأغلب)، وفي منطقة الجبهة (الفص الأمامي) يوجد في الجدار الأمامي للأخدود الوسطي المركز الأول المسؤول عن تخطيط حركات الإنسان، ففي القسم العلوي من المنطقة الأمامية مركز مسؤول عن الحركات المعقدة، وخلفه مباشرة وفي وسط المنطقة الجانبية مركز مسؤول عن الحركات البسيطة. أما المنطقة الموجودة خلفه والمجاورة لحاسة السمع والتي تمتد إلى الأعلى فمسؤولة عن حاسة اللمس. ولكن جميع هذه الساحات والمناطق ليست محددة بشكل قاطع، بل هي في وضع مبعثر وتملك شبكة من الارتباطات المعقدة. أما الساحات الموحدة القريبة من هذه المناطق فمسؤولة عن تحويل التنبيهات الآتية من الحواس إلى معانٍ وصور.

النخاع الشوكي

يمتد النخاع الشوكي بعد خروجه من القحف في العمود الفقري، وهو المركز الذي ترتبط به التنبيهات الآتية من مناطق الجسم الموجودة تحت الرقبة. ومع أن المادة السنجابية تكون في الخارج (القشرة) والمادة البيضاء في الداخل، إلا أن المادة السنجابية تكون داخل النخاع الشوكي في الداخل في شكل فراشة، أما المادة البيضاء فتكون في الخارج وتشكل غلافا يحيط بالمادة السنجابية، ويؤمّن هذا المركزُ جميعَ ردود الأفعال في الحبل الشوكي بواسطة التنبيهات الآتية من المحيط -ولا سيما من الجلد والعضلات-

بواسطة عُقَد الاتصال (الخلايا الرابطة) الموجودة بين الخلايا العصبية. وبينما يقوم قسم من الخلايا الرابطة بالإجابة على ردود الأفعال يقوم القسم الآخر بنقل هذه التنبيهات إليّ. وهكذا تظهر القرارات الإرادية.

يخرج من الحبل الشوكي ٣١ زوجا من الأعصاب يسارا ويمينا. أما من المنطقة داخل القحف فيخرج ١٢ زوجا. وجميع هذه الأعصاب تخرج من مركز الجهاز العصبي وتتوزع على مختلف الأعصاب، فهي إذن منظومة عصبية لمحيط الجسم. وباستثناء العصب العاشر الذي يخرج من المخ وهو "العصب التائه" تقوم جميع الأعصاب الخارجة من المخ بالسيطرة على فعاليات الحركة والإحساس لمنطقة الرأس والعنق. أما الأعصاب الخارجة من الحبل الشوكي فيخرج كل عصب من الثقب الموجود في جانب كل فقرة من العمود الفقري. ولكل عصب من هذه الأعصاب جَذرانِ: أحدهما جذر عصب الإحساس ويقوم بإيصال التنبيه، والآخر عصب الحركة ويقوم بنقل أمر الحركة. وما إن يخرج هذان الجذران من فقرة العمود الفقري حتى يتحدا في الخارج. وهكذا تظهر الألياف العصبية المجدولة التي تنقل الأحاسيس وتنقل أوامر الحركات أيضا. ومن هذه الألياف العصبية تنتقل فروعٌ نحوَ كل عضو من الأعضاء؛ فمثلا إن غرست إبرة في يدك قامت الخلية العصبية التي تنقل التنبيهات والأحاسيس بإيصال هذا التنبيه إلى الحبل الشوكي عن طريق ذراعك. والجواب الوارد من الحبل الشوكي هو رد فعل يجعلك تسحب يدك حالا. ورد الفعل هذا يصل إلى عضلات الذراع وعضلات اليد.

عناية ربانية

تنقسم هذه الخلايا في المنظومة العصبية العائدة إلى محيط الجسم إلى مجموعتين: المنظومة الجسدية المنتشرة في عضلات العمود الفقري، والمنظومة العصبية المنتشرة في الأعضاء الداخلية. ومعظم فعاليات المنظومة الجسدية تكون إرادية وشعورية، أما الأخرى فمعظم فعالياتها تكون لاإرادية ولاشعورية. وأما الفعاليات اللاشعورية فهي تسيطر دون أن نشعر على العضلات المستقيمة التي تنظم ضربات القلب وإنتاج عصارات الغدد وإفرازها وعضلات الشرايين الدموية وعضلات التنفس والهضم والإفراغ والتناسل.

عزيزي عبد الله...

لو أعطي كل شيء تحت إمرتك وسيطرتك هل كنت تستطيع تدبير كل هذه الأعمال العديدة وإنجازها؟ إن إرادتك تعمل حتى حين قيامك بوضع لقمة في فمك. ولكن جميع عمليات إفراز الغدد الهضمية وجميع حركات المعدة والأمعاء، وجميع فعاليات الإفراغ تجري كلها خارج إرادتك بشكل آليّ. فحركة تنفسك لا تتوقف عندما تنام، ولا تتوقف كليتاك عن فعالياتها لكونك نائما، ولا يقوم قلبك بالتوقف عن عمله وأَخْذِ قسط من الراحة عندما تنام، ولا يتوقف كبدك عن نشاطه، ولا يتوقف البنكرياس عن إفراز الأنسولين. وجميع أعضائك الداخلية وشرايين دمك مستمرة في أداء أعمالها بالتعاون مع العضلات المستقيمة في كل وقت ومكان. وتجري كل هذه الفعاليات والأنشطة دون أن تشعر بها، والحقيقة أنك لو قمت بأدائها شعوريا لتعبت بعد خمس دقائق فقط، إذ لا تستطيع الاستمرار في التركيز فيتشتت انتباهك.

الألياف العصبية

تنقسم الألياف العصبية في المنظومة العصبية في الإنسان إلى قسمين: أولهما القسم السمبثاوي، والثاني نظير السمبثاوي. وقد خُلق هذان القسمان بحيث يجيب أحدهما الآخر بشكل متقابل وتمتد بشكل سائب. ويقوم أحدهما بتحفيز العضو للعمل السريع وللإنتاج الكثير، بينما يقوم القسم الآخر بتهدئة العضو وتبطيئه وتقليل الناتج. وبين هذين التنبيهين يقوم العضو —حسب ظروفه وأوضاعه– بأنسب إيقاع عمل وأفضله. والقسم السمبثاوي يهيئ الجسم في الأغلب لمواجهة الظروف المتوترة وظروف الصدمات. فمثلا تعود زيادة ضغط الدم وزيادة مستوى السكر في الدم وزيادة التعرق وتوسّعُ حدقتي العين وسرعة جريان الدم في العروق إلى تأثير الألياف العصبية السمبثاوية. أما القسم نظير السمبثاوي فيعمل على إعادة الأحوال الهادئة للأعضاء الداخلية وإلى تخفيض ضغط الدم لكي تستطيع هذه الأعضاء القيام بوظائفها.

الخلايا العصبية

تحدثتُ منذ البداية عن أقسام وتنبيهات مختلفة، ولكني لم أتحدث عن خليتي العصبية التي تعد الأساس في المنظومة العصبية ولا عن كيفية عملها. فالخلايا العصبية التي يبلغ عددها ٣٠ مليار خلية هي الوحدات الأساسية التي تعمل في جميع أقسام المنظومة العصبية. والخلية العصبية تتكون من جسم الخلية ومن الامتدادات العديدة التي تخرج من جسم الخلية مثل الأغصان المتشابكة للشجرة. ونحن نطلق اسم "المحور العصبي" على جسم الشجرة وعلى امتداده الوحيد والغليظ. أما أغصان الشجرة وتفرعاتها الدقيقة فتدعى

"الزائدة الشجرية". والتنبيهات التي تسير بشكل تيار كهربائي تنتقل من المحور العصبي نحو هذه الزوائد الشجرية. ونقطةُ الارتباط بين محور خلية عصبية والزائدة الشجرية لخلية عصبية أخرى يتم عن طريق إفراز مادة كيميائية تدعى "نوروترأنسميتر" إلى الفراغ الموجود في نقطة الاشتباك. وما إن تصل هذه المادةُ إلى جدار الخلية الموجودة تجاهها حتى يحصل تيار كهربائي. وكما يحدث في أحجار الدومينو حيث تسقط هذه الأحجار بالتتابع، أو كما يحدث في بعض المباريات عندما يرفع المتفرجون أيديهم بالتتابع محدِثين حركة تماوجية، كذلك تنتقل الرسائل التي يحملها التيار الكهربائي بسرعة كبيرة من طرف الخلية إلى الطرف الآخر، ثم تنتقل إلى الخلايا المجاورة. وبينما تملك الخلية في حالة سكونها (‎-٧٠mv) طاقة مدخرة يمكن بتيار كهربائي شدته (‎+٣٠ إلى ‎+٤٠ mv) نقل جميع المعلومات المطلوبة. وكل خلية تستطيع نقل ألف إشارة في الثانية الواحدة.

الذاكرة

أما الذاكرة التي لا نعرف تماما ماهيتها حتى الآن، فهي تقوم بخزن مئات التجارب كل يوم وتستطيع إرجاعها إلى ذاكرتنا. وهناك عدة نظريات تحاول تفسيرها وتفسير كيفية عملها. ولكننا نعلم أن جواب هذا السؤال لابد وأنه يكمن داخل خلايانا العصبية. وبالنسبة للذاكرة فمن الصعب تحديد مركزها تحديدا قاطعا. وربما كانت هناك علاقة لجميع المراكز العصبية بالذاكرة. والذكريات المخزونة تكون على أنواع: فمنها صوتية، ومنها صور ومَشاهد، وبعضها تتعلق بالروائح، وبعضها تتعلق بالخيال، وأخرى بأحاسيس الغضب أو الفرح.

وأنت لا تستطيع حتى تخيُّل مدى سعة الذاكرة عندي؛ فأنا أملك نوعين من الذاكرة؛ أحدهما على المدى القصير، والآخر على المدى البعيد. ففي المدى القصير أستطيع في كل مرة حفظ تسعة أشياء مختلفة كحد أقصى. ومعظم الناس لا يستطيعون حفظ أكثر من سبعة أشياء في ذاكرتهم. وفي الذاكرة على المدى القصير لا يبقى شيء أكثرَ من بضع دقائق. وما تتذكره للمُدد التي تزيد على هذا يعود إلى الذاكرة على المدى البعيد حيث يسجل هناك، فيبقى هناك أياما وأسابيع وشهورا بل ربما لسنوات. وما تتعلم أو تعلم من شيء إلا وهو محفوظ في الذاكرة على المدى البعيد. وما إن تبلغ الثامنة من عمرك حتى يبلغ حجم المعلومات المخزونة في ذاكرتك ما يساوي المعلومات المدونة في مليون مجلد من دائرة المعارف. ومع ذلك فهذا المقدار يعد شيئا ضئيلا، لأن ذاكرتك على المدى البعيد تملك سعة غير محدودة ولا يمكن ملئها؛ فحتى لو تجاوز عمرك المئة عام فإن ذاكرتك مستعدة لحفظ أشياء جديدة على الدوام. إن فعاليات التعليم في الصغر (مثل حفظ القرآن الكريم أو تعلُّم لغة) تكون أسهل، وتتحقق بشكل سهل ورصين. ومثل هذه الفعاليات التعليمية في الصغر تقوّي الذاكرةَ.

اللاشعور

أما تذكُّر حادثة فهو تكرار الشفرة الكهربائية التي سَجلت تلك الحادثةَ في أثناء حدوثها. فأحيانا تُحاول تذكرَ اسم شخص فلا تستطيع، مع أنك تشعر أن الاسم على طرف لسانك، ثم تيأس وتترك محاولة التذكر. ولكن ما إن يمر يوم أو يومان حتى يخطر ذلك الاسم على بالك فجأة فتفرح. فهل تعرف كيف يحدث هذا؟ عندما تحاول جاهدا تذكرَ الاسم فأنت في الحقيقة تستعرض جميع خلاياي العصبية للتوصل إلى الملف الذي خزنت فيه ذلك الاسم، ولكنك لا تجده عند بحثك واستعراضك لمليارات الخلايا العصبية؛ لأنك إما لم تستعمل ذلك الملف كثيرا، أو لم تضعه في مكان أمين لعدم أهميته بالنسبة لك. ولكنك لا تنسى أبدا اسم والدك، لأنك تعدّه شيئا مهما وتستعمله بكثرة، لذا فهو موجود في ملف أمام عينيك.

ولكن عندما تيأس وتتخلى عن محاولة التذكر تبدأ آلية أخرى بالعمل يطلق عليها اسم اللاشعور، وهي آلية حافلة بأسرار أكثر. تبدأ هذه الآلية بالعمل دون أن تشعر بها، وتُخرج لك ذلك الملف وتضعه أمامك فتذهل وتتعجب. فاللاشعور مكان محفوف بالأسرار ويؤثر في جميع جوانب حياتك. ولا يسجَّل في اللاشعور سوى المشاعر الصادقة والحقيقية الخالية من الرياء والأفكار الحقيقية. ثم هناك الذكريات الأليمة وذكريات الذنوب التي تهزك من أعماقك.. ومثل هذا الشعور بالذنب الموجود في اللاشعور وعقدة النقص تنعكس في العديد من سلوكك. ولكن مثل هذه المشاكل نتيجة لا يمكن للإنسان الهرب منها، ولكن الخلاص منها بيدك. فإن كنت رجل إرادة وشغلت نفسك بصبر بأعمال الخير نجحت في تغليب فطرتك السليمة فلا تعود تلك الذكريات القبيحة مؤذية لك، فتنجح في إصلاح هذا الأمر. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

المسلمون

بين الشدائد والبشائر

أ.د. الشاهد البوشيخي*

لابد من الثمن لأي سلعة، وبما أن سلعة الله الجنة فثمنها غال جدا، لأن الجنة هي مستقر الرحمة، قال رسول الله ﷺ: "إن لله مائة رحمة. فمنها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم. وتسعة وتسعون ليوم القيامة" (متفق عليه). فبقسمة واحدة يتراحم جميع الخلائق منذ كانت الدنيا حتى تفنى، جميع مظاهر الرحمة التي ترى في علاقة الآباء بالأبناء، والمومنين بعضهم ببعض، والوالد بولده، والوالدة بولدها، وعلاقة جميع الكائنات، وجميع مظاهر الرحمة والرأفة والحنان كلها تدخل في قسمة واحدة، وهي مَجْلَى صفة الرحمن ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٦)، وتسعة وتسعين للرحيم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾(الأعراف:١٥٦). شاع بين الناس أن الله رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وذلك له شواهده ومنها هذا. الرحيم لشدة الرحمة، والرحمن لسعتها، والرحمة لسعتها يدخل فيها جميع الخلائق كفارا كانوا أم مومنين، أحياء كانوا أم غير أحياء، أم جمادات، أما اسمه الرحيم، فهو للمومنين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(الأحزاب:٤٣)، تلك الرحمة تتجلى أساسا في الجنة، وفيما أعد الله لأهل الجنة، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(يونس:٢٦)، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(ق:٣٥)، هذا الثواب العظيم جدا الذي نقيس الغائب فيه على الشاهد؛ فإذا كانت الرحمة الواحدة من المائة من رحمة الله قد غرق فيها جميع الخلائق فكيف هي هذه الرحمة؟

ومن ثم فالفرح أساسا بفضل الله وبرحمته ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (يونس:٥٨)، "ما من أحد يدخله عمله الجنة" فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمة" (رواه مسلم). ومن تغمُّده برحمته التوفيق إلى فعل ما يوجب رحمته ﷻ ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:٤٣). فإذا هذه السلعة عظيمة الشأن جدا، شيء لا يتخيله الذهن حتى إذا أراد تخيله لا يستطيع تخيله، فلابد أن يكون ثمنه كذلك مرتفعا، لابد أن يكون عاليا "ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"(رواه الترمذي). المومنون ما كان يحركهم وما يحركهم ولن يحركهم حق التحريك إلا مثل هذه السلعة، فهم عن الدنيا وفيها زهدوا، لأنها

فانيــة بكل ما فيها، فكيف يمكن التعويل على أي شــيء فيها. تدبرتُ في الأمر فوجدتهــا تتلخص في هذا: لابد من ثمن يكافئ المُثمَن، يكافئ السلعة التي ستشترى، وبما أن هذه السلعة هي الجنة فتحتاج إذا إلى ثمن باهظ، ولكنه أيضا يســير على من يسره الله عليه، كما في الحديث الصحيح (رواه الترمذي).

التربية بالأخطاء

البشــائر بالنســبة للمؤمنين كثيرة جدا، فيها العام وفيها الخاص وفيها القريب وفيها البعيد. وأعظمها هذه البشرى، بشرى الجنة، ورضــوان الله ﷻ؛ فالله وعد المومنــين بالنصر وجعله حقا عليه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الروم:٤٧)، وقال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾(محمد:٧) في أي لحظة تاريخية وأي بيئة وأي وســط ﴿إِنْ تَنْصُــرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، إذا لم تجد جواب الشــرط فاعلم أن الشــرط فيه خلل، أما جواب الشــرط فلا يمكن أن يتطرق إليه خلل مع وجود الشــرط. فإذا رأينا في الخارج ما لم يعجبنا، فلنتامل جميعا قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَــا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِــكُمْ﴾(آل عمران:١٦٥) ليــس من جنس خارجي، ليس من اليهود ولا من النصارى كما يحدث عادة في التحليل لأوضاع وأحوال المسلمين، الكل لا أصل له، التعليل والتحليل الصحيح القرآني الســني دائما داخلي. وما أصاب المسـلمين في السيرة النبوية لا في أُحُد، ولا في حنين، ولا في أي وقت إلا بما كسبت أيديهم، وذلك لظروف عظيمة تنبني على ذلك. فالتربية بالأخطاء هي وجه من وجوه التربية العظيمة، لأن الإنســان قبل أن يصيبه جزاء الخطأ تقريبا قد يكون سكران ســاهيا، ولا يصحو إلا بعد نزول الصفعة، إذ ذاك يتهيأ نفســيا للتلقي. صحيح كما قال ﷺ "السعيد من وعظ بغيره" (رواه مسلم)، ولكن هذه درجة عالية، ومن أجلها قص القصص ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(يوسف:١١١)، لأن في القصص وفي غير القصص، في أمــور الكون التي يفكر فيها، ما يكفي للدلالة والإرشاد، لكن لمن كان فيه ما يلزم من الاستعداد. أما إذا لم يكن ذلك الاســتعداد فإنه لابد من تهييء ظروف الاستعداد بأشكال من الصفع والضرب والركل وما أشبهها، تتجلى بأشكال مختلفة لتُهيئ الجــو للتلقي، وإن ما حدث للمســلمين بصفة عامة في القرنــين الأخيرين هو من النقم التي في طيها كثير من النعم، فهي نقم فيها عدل الله وفضله؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(فصلت:٤٦) لأن ما أصابنا فيها كان على السُنّة ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(الشـورى:٣٠). فظاهرة الاستعمار جملة في العالم الإسلامي، كل ذلك بما كسبت أيدينا. وبما أن الذين كلفوا بحمل الأمانة ووكل إليهم أمر الشــهادة علــى الناس، ما حملوا الأمانة وفرطوا فيها، وأخلــدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم فابتلاهم الله بأشكال من الابتلاءات. وأقول: فيه عدل الله ﷻ، وفضله، ومن ذلك الفضل هذا الوجه الثاني للأمر، وهو أن هذا السكر بالدنيا لا سبيل إلى إيقاظ المسلمين منه إلا بمثل هذه الصواعق المحرقة، وهذه الكوارث، لأنه لولا مثل هذه الصواعق ما استطعنا أن نستيقظ، ومــا كان ما يتحدث عنه اليوم بالصحوة الإســلامية التي نرجو أن تَرشُــد وأن تتسع وأن يمكّن الله لها في الأرض بجوده وكرمه.

فــإذاً الله وَعَد ووعده صادق، ولكــن ما وعد الله وعدا إلا مشــروطا، وعوده بالنصر العام، أو بالتخصيص بالنصر في الدنيا مثل ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُــلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْــهَادُ﴾(غافر:٥١) و"الذين آمنوا" حتى ولو لم يكونوا الرســل ﴿فِــي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَــوْمَ يَقُومُ الْأَشْــهَادُ﴾ "في الحياة الدنيا" بالتحديــد، و"إن" و"لننصر" كلها توكيدات. ثم جمع هذا الأمر في صورة السُنة الماضية الكونية في صورة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِــنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) سواء كانت "الأرض" بمعنى صغير كما ذهب بعض العلماء بأنها بمعنى "فلســطين" فقط ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾(المائـدة:٢١)، أو كانت الأرض هــذه الدنيا الكرة الأرضية كلها، أو كانت الأرض هي الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾(الزمر:٧٤) المعاني لا يوجد لها مخصــص في الآية ولا داعي للتخصيص، بل ما جاء من الآيات بعدُ جاء موضحا لأشــكال الأرض، فهي سابقة على الأولى، وسابقة على الثانية، وسابقة على الثالثة.

العبادة بالاختيار

فالله وعـد في الذكر الأول وفي الزبور وفيمـا جاء مما نزل من الكتب، وحـتى نزول الكتـاب كله وهو القـرآن، وعد بأن الأرض يرثهـا عباد الله الصالحون، قال الله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا﴾ هذا أمر قد كُتب وفرغ منه، ولكن الشـرط دائما حاضر ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿عِبَادِيَ﴾، إن هذه اللفظة – لفظة عبد الله– ليست لفظة عادية، لفظة فيها كثير من الأهمية والخطورة، فالله سبحانه حـين أراد أن يمدح محمدا ﷺ سماه "عبد الله" ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾(الإسراء:١) ما قال: "برسوله"، ولا قال: "بنبيه"، بل قال" "بعبده". فلفظة "عبادي"، وليس "عبيدي" أيضا فيها سر، لأن هناك "العبادة بالاضطرار"، وهناك "العبادة بالاختيار"، ولفظ "العبيد" في الغالب، إلا في بعض السياقات يذهب عادةً إلى العبادة بالاضطرار فالكل ﴿آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾(مريم:٩٣) ولكن العابد لله بالاختيار هو الذي جعل من نفسـه عبدا، هو اختار من نفسـه عبدا لله، هو عبد الله بطبيعـة الحال، ولكن بمعنى الاختيار جعل نفسـه عبدا لله، "عبد الله" هذا يجمع على "العباد"، على "عباد الله"، و"عبـاد الرحمن"، ليس و"عبيد الرحمن"، هذا من "العبادة" وليس من "العبدية". فالعبادة ببساطة أن تجعل من نفسك عبدا لله باختيارك، إذا جعلت من نفسـك باختيارك عبدا لله فأنت عابد لله، وأنت من هؤلاء: "عبادي" الذين يرثون.

الصالحون المصلحون

شـرط آخر: ﴿الصَّالِحُونَ﴾ هذا مزيد من البيان، وإلا فعباد الله فيها كل شـيء، تماما مثلما يقـول الله ﷻ: "الله"، ثم يأتي بعد ذلك بالأسماء الحسـنى، وكلها مضمنة في "الله". فعباد الله فيهم صفـات كثيرة، لخص تلك الصفات ههنـا في "الصالحين" فمَن هـم الصالحون؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِـي الصَّالِحِينَ﴾(العنكبوت:٩). فالصالحون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحـات، و"الباقيات الصالحات" هي كل شـيء، الباقيات الصالحات جميع الأعمال، فهـذا الوعد كبير وعام، كوني لكن يحتاج إلى شرطين:

١-شرط الإيمان. ٢-شرط الصلاح والأهلية.

الصلاح في هذه الأمة متمثل أساسا في إصلاحها للناس، لأنها أخرجت أساسا للناس، إذ لها خصوصية لكن الآية عامة.

صناعة التوحيد والإيمان

ثم البشرى في الآخرة بالجنة وردت في أماكن ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُـمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْـرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾(يونس:٦٢-٦٤). وفي سورة الصف جاءت البشرى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٢٢٣)، حين نسمع لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في القرآن مستقلا عن أي شرط، نعلم علم اليقين أن ما سواه يدخل فيه، وما يأتي بعده كله داخل فيه، لو قال الله: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(العصـر:١-٣) فقط وسـكت، فاعلم علم اليقين أنه يدخل فيها: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. فحين يذكر الإيمان وحده فهو يشمل العمل، لأنه لا يتصور إيمان بـدون عمل، إنما في أذهان الناس وفي عقل المتكلمين، أي الذين اشتغلوا بصناعة التوحيد لا في صناعة الإيمان، إذ كان رسول الله ﷺ مشتغلا بالإيمان فيمارس الإيمان ويتكلم بالإيمان وعن الإيمان وفي أهل الإيمان، وجاء الناس بعدُ وتكلموا في التوحيد وتكلموا في الكلام، وبقي الكلام مع الكلام وصارت الأمة إلى ما صارت إليه.

فالإيمان بالتعبير القرآني يستلزم العمل إلزاما، ويستلزم العمل الصـالح، إلا أنه نظـرا إلى أن الناس يحتاجـون دائما إلى مزيد مـن البيان والتكرار والتوضيح فـالله ﷻ بيّن ووضّح حتى قطع الحجة، ومن أجل ذلك أرسـل الرسل، وضرب الأمثال، وقص القصص، بيّن كل شـيء ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥). وانقطاع الحجة بالرسل باعتبارهم يعطون المثل البشـري للتطبيق الشـرعي؛ تراه أمامك ماثلا يمشي على رجليه، ها هو مطبق، وتطبيقه له لا من جهة كونه رسولا، وإنما من جهة كونه بشرا، بمعنى أنه أطاق ذلك وهو بشر، لم يطقه لأن فيه قوة خاصة جاءته وهـو ملك، لا، وإلا ما صار قدوة للناس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب:٢١) لأنه فعل ما يفعله البشر ويطيقه البشر، والله كلف البشر بما في وسعهم ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦).

المحن والمنح

فالبشـائر كثيرة ووعد الله عظيـم للمؤمنين في أي فترة وفي أي

مرحلــة، ولكن تلك الوعود جميعا لا نفـــاذ لها، ولن تكون إلا إذا وجدت شـــروطها وأثمنتها. والأثمنـــة عندما ندخل إلى الثمن يبتـــديء المفهوم الآخر وهو الذي يبتـــدئ بقوله تعالى في آيات تم الكلام عنها: ﴿الم ۞ أَحَسِـــبَ النَّـــاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّـــا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيـــنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِيـــنَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَـــنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(العنكبـــوت:١-٣)، والفَتْن في العربيـــة: وضع المعدن (الذهب أو الفضة) على النار الشـــديدة حتى يذوب وتطفو الشـــوائب فيصفى من تلك الشوائب ويبقى المعدن ذهبا خالصا أو فضة خالصة. فإذن المؤمن فيه شوائب قبل تصفيته بالفتن، فالفتن ضروري وســـنة ماضية، وبه يتميز الناس.

ما أشبه الإيمان بمنحة ربانية يعطاها الناس الذين أكرمهم الله دون سابق عمل؛ فليس منح الإيمان منحة خالصة لا يسبقها عمل هي جزاء لهم؛ فقد يكون الإنسان كافرا ثم يصبح مومنا، لم يفعل عملا صالحا قبل، لأنه لا قبول للعمل الصالح دون وجود الإيمان، فهي منحة. تصور أن أبا –ولله المثل الأعلى– عنده أبناء متعددون أعطاهم دفعة واحدة مليـــون درهم ثم قال لهم اذهبوا، تصرفوا؛ فبعضهم نمى ذلك المال، وبعضهم أكله من ليلته قامر به، وبعضهم لهى عنه حتى سرق له. كلٌ له تصرف فيه، فكذلك الناس–و لله المثل الأعلى– يُمنحون الإيمان، ويمنحون القدر الضروري الذي إن نمّوه زكت نفوســـهم ووصلوا إلى أعلـــى الدرجات مصداقا لقولـــه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُـــمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(المجادلـــة:١١)، ولكن هناك نـــاس لا يزكون ذلك ولا ينمونه فيتناقص حتى يذهب. فكم من ناس كانوا مؤمنين فكفروا وارتدوا. حتى في زمن رســـول الله ﷺ وقع هذا، وفي كل زمان يقع هذا ويمكن أن يقع. وإن كل نعمة هي في الحقيقة منحة، انظر إلى قولـــه تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَـــاءُ﴾(النور:٢١)، ولذلك قال رسول الله ﷺ "اللهم آت نفســـي تقواها وزكيها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها" (رواه مسلم) رغم أنه قال لنا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشـــمس:٩-١٠) وأنه أعطانا التصرفَ ولكن التوفيق منه ﷻ. فكل نعمة هي في أصلها منحة، وتحتـــاج إلى تنمية أيضا، بالتزكية، بالزكاة. وبالزكاة تربو النعمة وتزداد، ﴿أَمْ حَسِـــبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّـــةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾(البقرة:٢١٤) مثل الزلزلة التي تحدث عنها القرآن ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا﴾(الأحـــزاب:١١) وقولـــه: ﴿إِذَا زُلْزِلَـــتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾(الزلزلة:١) زلزلـــت القلوب من شـــدة الرعب، والهـــول والضيق، ولكن مع الإيمان القـــوي تنبت والله المثبت، ﴿يُثَبِّـــتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَـــوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـــاةِ الدُّنْيَا وَفِـــي الآخِرَةِ﴾(ابراهيم:٢٧).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ هذه التي تحدثنا عنها أن فيها تسعة وتسعين من الرحمة التي رأينا نموذجا واحدا، التي نحس بواحد على ما لا نهاية بالتعبير الرياضي تقريبا من سعة هذه الرحمة وعظمة هذه الرحمة الموجودة في الكون الآن. فهي مجرد قسمة، فتلك التسعة والتسعين مثل وضعف لذلك الضعف، ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾(يوســـف:١١٠) اشتدي أزمة تنفرجي. فإذا سنة البلاء سنة كونية حياتية حين قال الله: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم لحق ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾(الملك:٢) ليســـت فقط في الحياة، بل حتى الموت نحن مع الفتنة ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّـــرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(الأنبيـــاء:٣٥). فالإنسان حين يكون في عافية لا يظنـــن أنه ليس في فتنة أو ليـــس مبتلى، بل هو مبتلى إذ ذاك، حين يكون مبتلى بتلك العافية هل يشكر نعمة الله أو لا يشكر؟

تمييز الخبيث من الطيب

وههنا نقطة أحســـبها في غاية الأهمية وهي أن الله أســـس الأمر على البلاء والفتن، وعلى أساســـه تكـــون الرتب عند الله وفي الدنيا، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحشر:٨). ووسام الصدق أعلى وسام، ولذلك طلب الله مـــن جميع المومنين أن يكونوا مع هؤلاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة:١١٩).

سنة البلاء هذه –بصفة عامة– تقوم على الفتن، والفتن يؤدي إلى تمييز الخبيث من الطيب، وإن في المؤمنين الخبيث والطيب؛ كما

قـال الصحابة بعد نزول الآية: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(آل عمران:١٧٩)، قالوا: ما كنا نظن أنه يوجد خبيث وطيب في المومنين. فإذاً فينا خبيث وطيب، والخبث يحتاج إلى نار الفتن لحرقه في الدنيا رأفة بالمؤمن حـتى لا يحرق في الآخرة، لأن كل خبيث في المومن بعد لقيا الله ﷻ لابد من أن تحرقه النار إلا أن يشـاء الله شيئا بفضله وكرمه. السُّـنة العادية أنه لا يدخل الجنة إلا من يقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾(الزمر:٧٣)، و"إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا" (رواه مسلم). ولا يدخل داره دار السلام إلا الطيبون، أولئك يقال لهم: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمـر:٧٣)، أما قبـل أن تطيبوا لا دخول، أما إذا وجد في المؤمـن جوانب طيبة وجوانب خبيثـة، فلا يخلو من أمرين:

- إما أنه في هذه الدنيا ينقى بالفتن بأشكال يختارها الله.
- وإما أنه -لا قدّر الله- يؤخر ذلك إلى يوم القيامة وينقى بعذاب جهنـم ثم يدخل الجنة بعد. لكن لابد أن يطهر، لابد أن يطيب.

الأشباح في يد الأرواح

هـذا الفَتْن ضروري في عملية التصنيف هنا وهنالك، وهو رحمة بالمؤمنين، وتنقية لصفوفهم وقلوبهم، وتزكية لأرواحهم، وتقوية لهم أيضا، لأنهم كلما طابوا خفت أجسامهم وأرواحهم، فخفت أجسامهم، لأن الأشباح في يد الأرواح؛ لماذا يحس الإنسان بالثقل إذا طلـب منه أن يجاهد بماله أو بوقته أو بنفسـه؟ أو إذا قيل له جاهدْ بدرهم يعطيه بيسر، بعشـرة دراهم، ربما يعطيه ربما يبدأ في الإحساس بالثقل، خمسين درهما، البعض ما زال يحس بالخفة، البعـض بدأ يحس بالثقل، حتى ربما يثقل الجميع فـ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾(التوبة:٣٨)، هذا الثقل سببه ما في النفس مما ليس بطيب، فالروح حين تزكوا تخف وتصبح كالطائر، وتسـهل عليه أن تطير إلى الله ﷻ، فحين قال ﷺ للأنصار: "إنكم لتكثرون عنـد الفزع وتقلون عند الطمع" (رواه العسـكري في الأمثال)، لأنهم ربطوا أنفسـهم بالآخرة، يكثرون عنـد الفزع لأنه فيه البلاء، فكأنهم يرغبون فيما عند الله مما تكره النفس، أما حين يكون الأمر أمرا دنيويا خالصا، فهم يقلون.

وهذا الفتن له صورتـان: صورة وهي أن العبد تنـزل عليه بلايا نزولا، وصورة أنه هو يطلبها.

أنواع البلايا

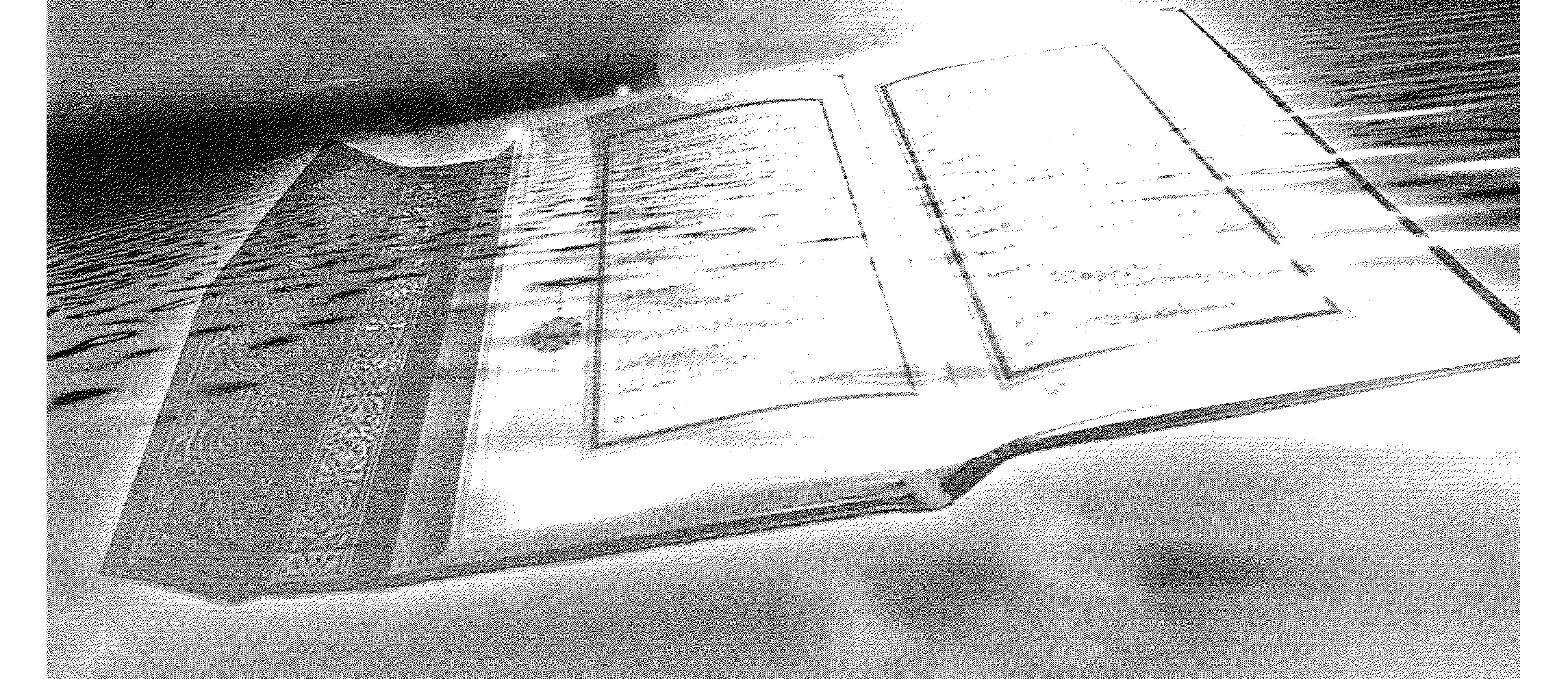
والبلايـا أنواع؛ فيها ما يطلب وفيها ما لا يطلب. نحن لا نطلب المرض مثلا، "فاسـألوا الله العافية" (رواه الطبراني)، وهناك نوع من البلاء يطلب، كبلاء الجهاد بجميع صوره، طُلب منا أن نطلبه وهو بلاء. الاستشـهاد آخر صور الجهاد، فأن تجاهد نفسك في ذات الله، وأن تجاهد شهوتك وولدك وتجارتك... حتى تجاهد روحك التي بين جنبيك في سـبيل الله وتعطيها راضيا في سبيل الله وابتغاء مرضـاة الله، إن قدّمتَ هذا برغبـة منك في ذلك، هذا عوّضك النـوعَ الآخر، وإلا طُهّرت بالنوع الآخر، والله الذي يختار ﷻ، فقد يختار من هـذا وهذا، وقد يختار من هذا دون هذا ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾(القصص:٦٨)، لكن إن تأملنا حال الصحابة، وتأملنا عددا من الأحوال نجد أن الإنسـان بفضل الله تعالى إن صدق الله ورسوله وأخلص، ولا يكون ذلك إلا ببذل، ليس الصدق أمرا نفسيا خالصا وكفى، لأن الصدق دليله في الجهاد، دليله في الواقع، في التضحية، إن حدث ذلك الله يدفع بذلك إداية أخرى من نوع آخر، وها هو يقول "ولا يزال البلاء بالعبد المومـن حتى يلقى الله وما عليه خطيئة" (رواه الترمذي)، حتى يطيب، يصير طيبا، يعني قد تهيأ تماما لاستقبال الملائكة له، فيقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمر:٧٣). والمقصود أن نكون عبيدا لله بالاختيار لا بالاضطرار وأن نختار نحن أن نقدم مـا أعطانا هو راضين برغبة منا بدل أن ينتزع ذلك منا اضطرارا وكرها وهو يجرنا إلى الله ﷻ كما قال ﷺ: "عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسـل" (رواه البخاري) يعني يجرنا إليه جرا إلى رضوانه بطريقة أخرى، حين أراد سبحانه بنا الخير. ولا أعلم في الصيغ التي استعملها رسول الله في أمر الإصابة والخير إلا صيغتين:

- "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" (متفق عليه).
- "من يرد الله به خيرا يُصِبْ منه" (رواه البخاري).

فهما متكافئتـان؛ مَن فقه في الدين يطلب هذا الذي أمر الله به راضيا مختارا، ومن يرد الله به خيرا يصب منه، من طلب ذلك راضيا مختارا نتج عنه أجور، والأجور ينتج عنها تكفير للخطايا. ■

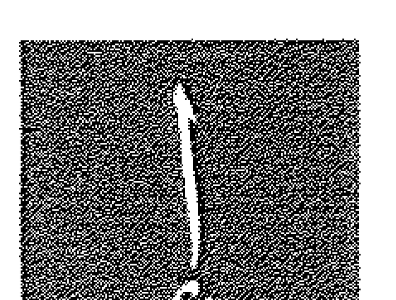
(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.





مظهر جلال الربوبية في القرآن

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*



إن الصفات التي يتميز بها كتاب الله (القرآن) عن سائر الكتب السماوية كثيرة ومتنوعة. ولكني أحب أن ألفت النظر إلى مزيتين اثنتين، هما من أبرز مظاهر إعجازه، لم يرق على شأوهما أي كتاب آخر.

أما أولى هاتين المزيتين؛ فما نعلمه جميعا، من أنه وصل إلينا من فم رسول الله ﷺ ضمن سلسلة متصلة من التدوين الكتابي الدقيق، والتلقي الشفهي السليم، سارا جنبا إلى جنب إلينا في تطابق واتفاق، واستمر ذلك إلى هذه الساعة من يومنا هذا، لا نرى على طول هذه السلسلة الممتدة حلقة مفقودة أو ثغرة ينفذ منها الشك أو اختلافا يبعث على الريبة. فلكأننا من هذا الكتاب الرباني أمام شمس واضحة مشرقة تسير أمام أعيننا في قبة السماء الصافية، ليس في طريقها مزقة سحاب تفشي عليها، وليس بيننا وبينها أي زوبعة أو ضباب يمكن أن يحجب شيئا من ضيائها عنا.

والحديث هنا لا يتسع للتذكير بالكتابة الأولى التي عكف عليها كتاب الوحي بأمر ومراقبة من رسول الله ﷺ، ثم بالكتابة الثانية التي قام بها زيد بن ثابت بأمر من سيدنا أبي بكر وكان الهدف منها جمع القرآن لأول مرة بين غلافين، ثم بالكتابة الثالثة التي أمر بها سيدنا عثمان بن عفان وعهد بذلك إلى أربعة من كبار قراء القرآن وحفاظه وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن حارث بن هشام ﷺ، فكتبوا سبع نسخ ملتزمين بكتابة زيد بن ثابت الذي التزم بكتابة كتاب الوحي، واعتمد فيما كان يكتب على السماع من شاهدين اثنين من حفظة القرآن، بالإضافة إلى اعتماده على ما كان قد كتبه كتاب الوحي في بيت النبوة. فوزع عثمان النسخ السبعة على أمهات الأمصار آنذاك: الكوفة، والبصرة، والشام واليمن ومكة والبحرين، واستبقى عنده المصحف الإمام وهو ذاك الذي كتبه زيد بن ثابت في خلافة أبي بكر.

فأي خبر أو كتاب سار خلال القرون في مثل هذا النفق

العجيب من الحفظ والوقاية ثم لم تستطع أي يد أن تدنو بأي عبث غليه أو تغيير لكلمة منه، على الرغم من كثرة من ابتغى ذلك. اللهم إن العقل لا يدرك أيّ موجب لهذه الوقاية إلا أن المصداق الدقيق الذي أعلنته القرون لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩) ولقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤١-٤٢).

وأما المزية الثانية، فهي تلك التي ينبغي أن تُسمّى "مظهر جلال الربوبية" في القرآن.

وإنها لأبرز مظهر من مظاهر إعجاز القرآن. إنه المظهر الذي يسري الشعور به إلى العامة الذين لا يتمتعون بدراية واسعة للغة العربية، بل يسري الشعور به حتى إلى نفوس كثير من الأعاجم الذين لا يملكون من الثقافة القرآنية إلا إيمانهم العميق بالله ﷻ.

إن مظهر جلال الربوبية في القرآن، يعني خلوه من الطبائع والصفات البشرية كلها، إنك إن تأملت في الآيات التي تقرؤها أو تصغي إليها من القرآن، رأيتها مرآة لجلال الربوبية وصفات الألوهية. ومهما تأملت، فلن تجد في شيء منها إلا ما يضاد الطبيعة والحاجات البشرية ومظاهر الضعف الإنساني التي يفيض بها كلام الإنسان أيا كان، وأيا كان نوع الحديث الذي يتناوله.

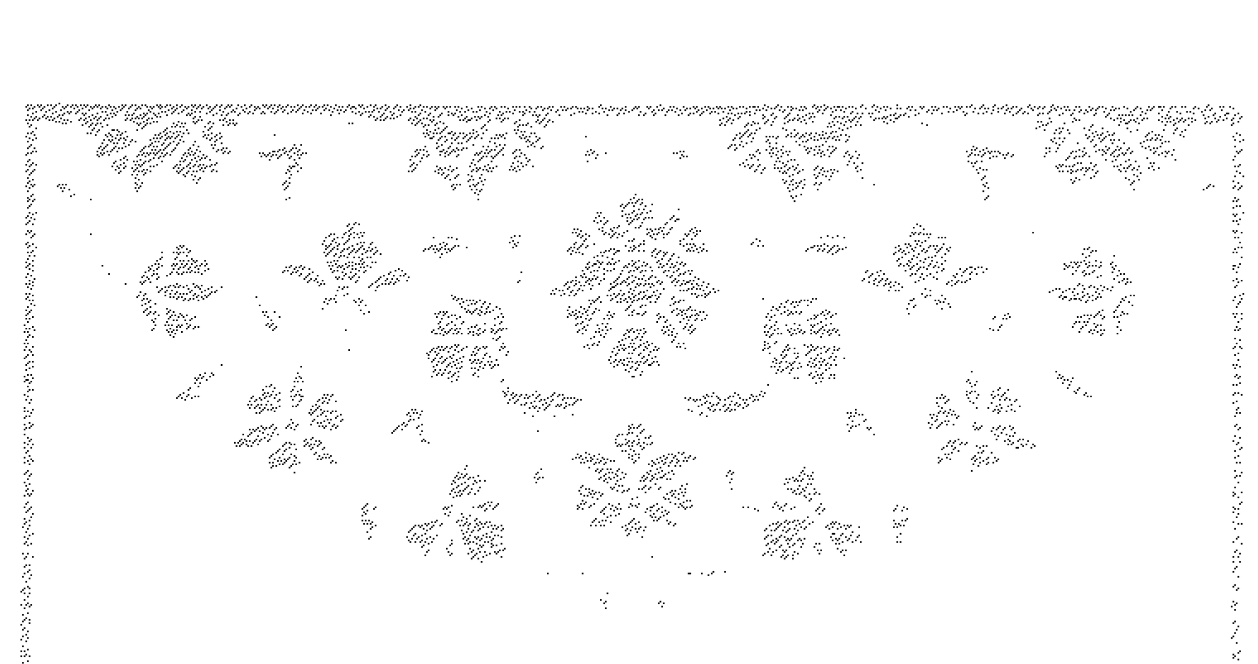
إن من المعلوم أن الكلام مرآة دقيقة لطبيعة المتكلم وصفاته واحتياجاته، وما تتجلى الأغوار النفسية لشخص ما على شيء، كما تتجلى على ما يكتبه أو يقوله. لذا فإن من العسير أن يقلد كاتب كاتبا آخر في أسلوبه إذا كتب.. لقد حاول كثيرون أن يقلدوا أسلوب الجاحظ مثلا، فلم يتأت لهم ذلك، لأن الأسلوب ليس طريقة معينة في صوغ العبارة فقط، بل الأسلوب -قبل ذلك- مرآة دقيقة لنفسية صاحبه، فلئن استطاع أحدهم أن يقلّد الآخر في صوغ العبارات، فهيهات أن يستطيع تقليده في خصائصه النفسية وطبائعه البشرية.

فإذا كان هذا واضحا، فأحرى -في باب البداهة والوضوح- أن لا يستطيع الإنسان -أيا كان- أن يتجرد عن بشريته وصفاته الإنسانية، ثم يجعل من نفسه إلهاً يتصف بكل ما لا بدّ أن يتجلى في ذات الله من مظاهر الربوبية المضادة للطبيعة البشرية، ثم ينطق بكلام تبرز فيه هذه الألوهية بكل ما فيها من كبرياء وجلال.

إن هذا مستحيل بلا شك، لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتخلّى عن صاحبها لحظة من حياته.

براءة القرآن من المظاهر البشرية

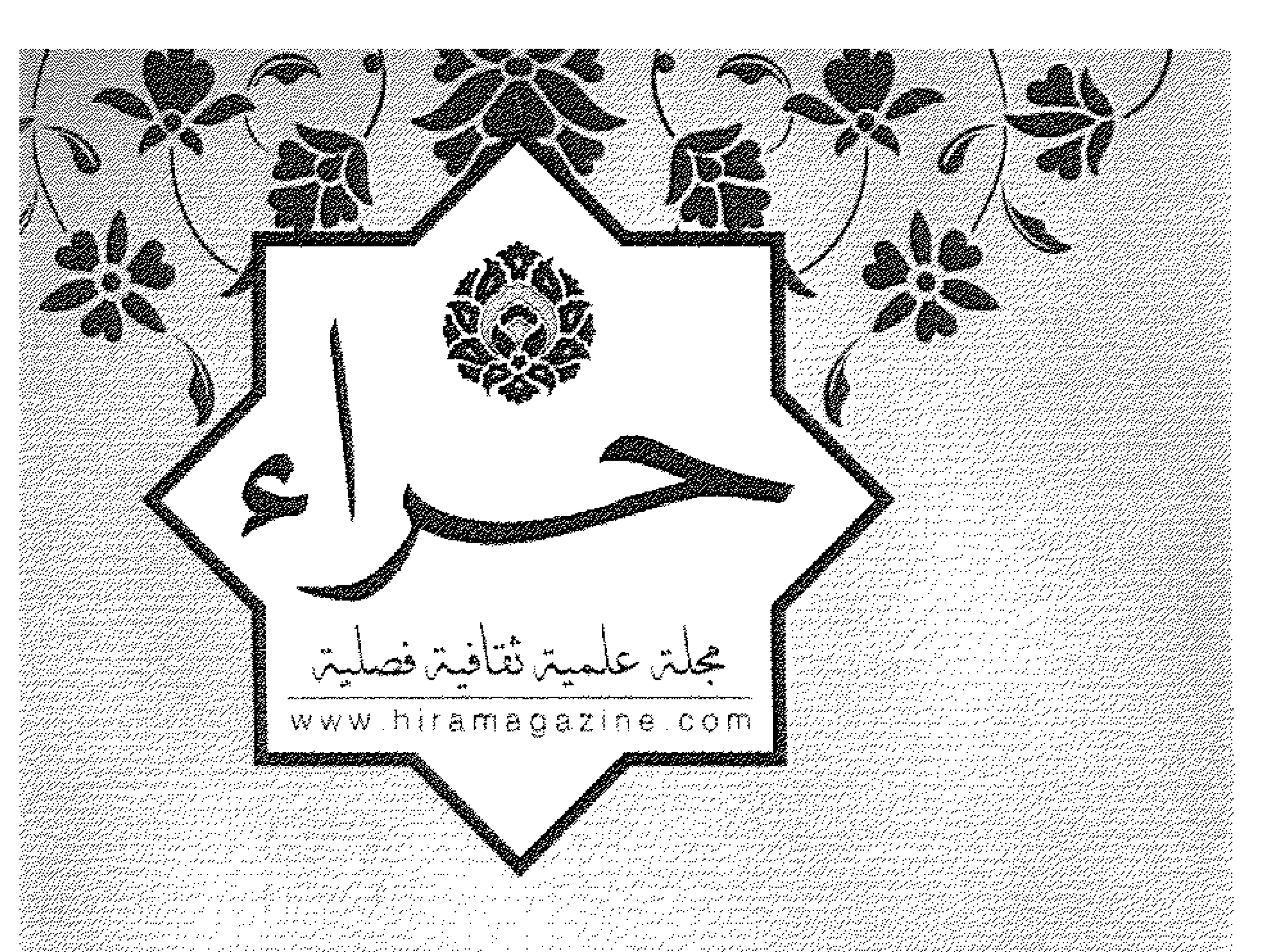
ولكن القرآن مبرّأ من سائر مظاهر البشرية والضعف الإنساني وحاجاته الفطرية. إنه الكلام العجيب الذي يشعّ بجلال الربوبية ومظاهر الألوهية من خلق وإيجاد وإحياء وإماتة وسيطرة وإحاطة.. وإنه لشعاع بيّن يخترق إلى السامع والقارئ حواجز اللغة وفوارق ما بينها.



عندما يهيمن القرآن، ويأخذ بمجامع النفس، ويملأ الفؤاد هيبة وتعظيما له، فإن الذي يبعث ذلك كله في النفس، إنما هو مظهر جلال الربوبية فيه، وهو من أجلى مظاهر إعجازه.

إليكم هذه النماذج من الآيات التي تتنزل من علياء الربوبية، وليسأل كل منا عقله: أفيمكن أن تكون هذه الآيات مما يستطيع أن ينطق به بشر من الناس؟!

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ۞ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(مريم:٦٨-٧٢) ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤) ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ۞ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۞ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(الإسراء:٧٣-٧٧) ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾(الحجر:٤٩-٥٠) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ



رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾(الذاريات:٥٦-٥٧) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾(ق:٤٣-٤٥)

فلنتأمل في هذه الآيات وأمثالها، ولنتبين ما يشعّ فيها من جلال الربوبية والسطوة الإلهية، ثم دعونا نتساءل: أفيمكن أن يكون هذا الكلام مما يمكن لبشر من الناس أن يصطنعه اصطناعا، وأن ينطق به تمثيلا أو أن يتحلّى به تزويرا؟

أَمَا إن الطبع لغلاّب، وليقم أي فرعون من الفراعنة المتألهين أو المتجبرين، ثم ليجرب أن ينطق بمثل هذا الكلام الذي يتنزل من علياء الربوبية، ويغمر نفس السامع والقارئ بمشاعر الهيمنة والجلال، فإن لسانه سيدور في فمه على غير هدى، مهما حاول، فسيأتي بكلام يكشف بعضه بعضا، فيه محاولة التمثيل، ولكن بشريته ومظاهر ضعفه الإنساني تعرّيه وتكذّبه.

وعندما يهيمن القرآن، ويأخذ بمجامع النفس، ويملأ الفؤاد هيبة وتعظيما له، فإن الذي يبعث ذلك كله في النفس، إنما هو مظهر جلال الربوبية فيه، وهو من أجلى مظاهر إعجازه.

صفحة مشرقة

وإليكم هذه الصورة التي تبرز هذه الحقيقة في هذا الواقع المشاهد الذي سجله التاريخ:

نزل عثمان أرطوغرل جد الخلفاء العثمانيين، ضيفا على قريب له في "بورصة"، ولما حان وقت رقاده، ودخل عثمان الغرفة التي هيئت له لينام فيها، رأى شيئا معلقا على أحد جدرانها، فدنا منه ليتبينّه، وإذا هو مصحف يزيّن الجدار، فاتخذ منه موقف الجندي من قائده، وأثبت كفا على أخرى ملصقتين بصدره، وبقي كذلك واقفا لا يتحرك إلى الفجر.

ذلك هو سلطان جلال الربوبية، تجلّى أثره في شخص عثمان أرطوغرل، وفعل فعله في كيانه. أما ثمرة ذلك على شخصه الإيماني وكيانه الوجداني، فقد برزت في سلالته الطاهرة التي أورثها الله مقاليد الخلافة الإسلامية، وجدد بها عهد الازدهار الإسلامي في بقاع الدنيا. ■

(*) كلية الشريعة –جامعة دمشق / سوريا.

لا مستحيل مع الإيمان

حدِّدْ هدفَكَ، وارسمْ خطتك،
واجْتَزْ أعالي الجبال،
واعلُ فوق التلال،
فلا وَعْرَ يَصُدُّك،
ولا شاهق يمنعك...
تزود لطريقك...
فلا زاد أغنى من الإيمان،
ولا هتاف أعذبُ من الابتهال،
وفي الطريق إياك أنْ تسهو،
وعن قراءة الكون حذار أن تَغفُل...

* * *

الأستاذ فتح الله كُولَنْ وإنشاء حدائق الإبداع الحضاري

أ.د. عبد الحليم عويس*

قال الراوي:

كانت خريطة الأرض يوشك أن ترسم بريشة الألحاد.

ونظر "خوجه أفندي" حوله وتساءل أليست وراثة الأرض للصالحين؟

واتخذ قراره لن نترك الأرض لظلمة الإيمان... وراح يغوص في جهود أبطال الإحياء، والبعث بالإيمان..

قرأ إحياء علوم الدنيا في تراث الأسلاف، وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي، وحجة الله البالغة للدهلوي، وأبحر في عالم المعاصرين المجددين في تركيا والشام والهند والجزائر... وأسعدته تلك القراءات المعاصرة للقرآن، تلك التي جمعت بين التفسير، والتربية والفقه والتذكير... قرأ التحرير والتنوير لابن عاشور، ومجالس التذكير لابن باديس، وقرأ الظلال، وقرأ -قراءة عميقة- "رسائل النور" لأنها الأقرب إلى نفسه، في الزمان والمكان والتحديات.

وقد أتيح لصاحب رسائل النور -نتيجة ظروفه- أن يعيش مع الطبيعة، وأن يتصل بالكون، وبخالق الكون، من خلال كلمات الله الكونية... فجاءت رسائل النور كأنها تنزيل من التنزيل.. ونفذت أشعتها -مع أشعة الشمس- إلى قلوب الناس وكيانهم وعقولهم... فتأصلت... وحملت العناية الربانية كلمات الرسائل وبذورها الإيمانية مع الرياح السائرة هنا وهناك، لتسقط منها حبة هنا، وحبات هناك.

قال الراوي:

والآن ياصاحب الرسائل، يا سعيدنا الجديد!

ها أنت تودع الأصحاب، وملايين الطلاب، بعد أن واجهت -بالأمل في مستقبل الإسلام- وبالثقة الكاملة في وعد الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(التوبة:٣٣).. وبانتصار عالم القرآن على كل فلسفات الإلحاد والمادية.

والآن، يا كل دعاة الإيمان، يا أفغاني، يا محمد عبده، يا رشيد رضا، يا أرسلان، لينم كل منكم في قبره مأجورا، مسرورا!

وأنت يا صاحب الرسائل:

والآن، بعد ذهاب القرن الأسود.

نَمْ مسرورا في قبرك وتنعّم،
فالوعد الحق سيجعل قبرك إشـــعاعا من فكرك، قبرا محفورا في الأعماق.
فرسائل نورك مصباح لك في دنياك وأخراك،
في ساعة يُسرك أو عُسرك!
ياصاحب الرسائل، يا زارع البذور في حقول الإيمان!
ها أنت هنا مسرّحا من وظائف الفناء،
كما علّمتنا في رسائل الضياء.
ها أنت هنا تعيش ناعماً في عالم البقاء،
عابراً دونما إبطاء ودونما انقطاع،
مُبْحرا من عالم الشقاء والصراع.

أحلام قبورية

ياصاحب الرسائل! إخلاصك حتى في قبرك نورانية...
ذات ليلة — ياسيدي،
يوم كنت تغوص في رسائل الإمداد،
تكتب بالعين والسمع والفؤاد،
تنقل من عالم العطاء والإسعاد،
غفوت والنور في راحتيك.
رحلت بروحك من عالم الأشياء.
ورحت تكلم الموتى مع الأحياء..
لا جسم لك..
لا جرمَ لك، لا نسمة من الهواء.
ها أنت هنا تعيش في عالم القبور...
قبرك من نور.
وفؤادك يرنو للبيت المعمور
يرنو للّوح المحفوظ المسطور.
يسأل في لهفة حب وسرور
وأنت تهرول حول اللوح، وتجري وتدور:
يالوح الكون ويا قلم القُدرة، يا مخزن أسرار الكون المستور.
ترفع صوتك في قبرك، في الملأ الأعلى، وتنادي:
أخبرني عن أهلي، عن مليار مقهور
يؤمن بالله ويشهد بالتوحيد، ويصلي، ينتظر البعث المقدور
يؤمن بالنّصر الآتي. لكن، لا يعرف كيف يسير؟!
أخبرني يا لوح الغيب الأعلى، عن يوم النصر المبرور.
في الغفوة وبإحساس القلب المقهور.
في تلك الومضة واللحظة،
ظهرت في القبر ملامح عصر يأتي، يُبعث الإنســـان المسلم، إنسان النور.
– ها هي –يا سبحان الله– مظاهر أحلامك.
أقوى من كل الأحلام...

رسالة من القبر

وهتفت بأنشودة آمال رمزية...
وتقول لإنسان الإيمان المنتظر الأعلى:
يا من يختفي خلف عصر شاهق.
لما بعد ثلاثمائة ســـنة يســـتمع إلى كلمات النـــور بصمتٍ وسكون.
يا من تتسمون بسعيد وبحمزة، وعمر
وتُدعون بعثمان وطاهر أو يوسف أو أحمد.
إني أتوجه بالخطاب إليكم:
ارفعوا هاماتكم وقولوا:
"لقد صدقت"... وليكن هذا التصديق دَيْنا في أعناقكم.
إنني أتكلم معكم عبر أمواج الأثير
الممتدة من الوديان السحيقة للماضي المسمى بالتاريخ.
إلى ذرى مستقبلكم الرفيع..

ما حيلتي..

لقد استعجلت وشاءت الأقدار،
أن آتي خضم الحياة في شتائها..
أما أنتم فطوبي لكم وألف طوبى..
ستأتون إليها في ربيع زاهر كالجنة.
إن ما نزرعه الآن يُستنْبت من بذور النور،
فتتفتح أزاهير يانعة في أرضكم.
نحن ننتظر منكم لقاء خدماتنا،
أنكم إذا جئتم لتعبروا إلى سفوح الماضي،
عرّجوا إلى قبورنا، واغرسوا بعض هدايا ذلك الربيع
على قمة "القلعة" المستضيفة لرفاتنا وعظامنا...
سنوصي الحارس ونذكره.. نادونا..
ستسمعون صدَى "هنيئا لكم" ينطلق من قبورنا..
لقد كانت هذه الكلمات "الأخروية" أنشـــودة نورانية ذات

وقع خاص، وكان لها تأثيرها الكبير في النفوس طلاب الآخرة، طلاب الإيمان، البارزين الزارعين الزاهدين العابدين لله...

كولن، وحدائق الإبداع الحضاري

قال الراوي:

كانت كلماتك -يا صاحب الرسائل- آمالا علوية.

كانت أدعية خاشعة ترشح بالإخلاص.

في قبرك لم تنس الأمة. فتقلّب وجهك في الأفق الأعلى...

تدعو بلسان الروح،

لسان القلب المجروح...

فتقبلها الله، وحققها في أرض الناس.. ليس بعد ثلاثمائة سنة، لكن في سنوات خمسين..

أجل..فقط، في سنوات خمسين..

منحة رحمن وكريم!

هّبت ريح الإيمان،

وظهر الفيض الرباني، وتجلىّ في "فتح الله"...

منحة رب رحمن، لإمام يحيا في "النور الخالد"...

يعشق أعظم إنسان، معجزة الإنسانية...

أحلامه أكبر من كل الأحلام،

أقوى من كل الآلام.

يعرف كيف يجيب على "أسئلة العصر"، ويحل الألغاز السحرية...

جاء يخاطب كل الناس...

ويحاور عقل العالم، بوسائله العملاقة..

فالعقل المسلم قادر..-يأخذ بالألباب- لو عرف "الموازين" و"أضواء الطريق"، وتسلح بـ"النور الخالد" وبـ"طرق الإرشاد في الفكر والحياة" العملية.

وهناك تألق "فتح الله" يبني ويقيم صروحا للروح، في كل الأيام وكل الأعمال...

يصعد بالقانعين السفوح، إلى عالم "التلال الزمردية" ليعيشوا بالكلمة والعقل: حياة القلب والروح معا، في توازن غابت معالمه منذ عقود!

بناء إنسان النور الخالد

ولما كان الناس قد اختلطت لديهم حقيقة الجهاد وروحه، وجروا الإسلام إلى معارك فوضوية، حتى في داخل البيت المسلم نفسه، وأعطوا الفرصة لتعاون الداخل مع الخارج في تشويه الإسلام والتربص بالعاملين له..

فقد كتب الأستاذ الواعظ الإنسان كتابه عن "روح الجهاد وحقيقته في الإسلام" مبينا وظيفته الحضارية وأطره الإنسانية ودفاعه عن المقهورين ونشر المعاني الواسعة له، جهاداً بالعلم والمال والفكر والبناء الحضاري...

وهكذا عمد الأستاذ الواعظ "خوجه أفندي" "العالم الإنساني" إلى العمل على بناء إنسان جديد من خلال عدد كبير من الدراسات التي ترجم أقلها إلى العربية ومازال أكثرها حبيس اللغة التركية، مع أن العرب أحوج من غيرهم إليها ليدركوا- من خلالها- كيف تكتشف "أضواء القرآن في سماء الوجدان" ويدركوا حقيقة الخلق الإلهي، ودحض "نظرية التطور" التي سيطرت على العرب عدة عقود...

وليعرفوا -كذلك- أبعاد مشكلة "القدر والقضاء، في ضوء الكتاب والسنة"، وكيف أنه لا يسلب الإرادة الإنسانية، ولا تفتر بالعقل عن إرادة البناء الحضاري...

وكيف أن الإيمان الحق به عنصر فاعل إيجابي، يدفع إلى الكسب والأخذ بالأسباب دون عبادة الأسباب أو نسيان قدرة مسبب الأسباب، الذي لوشاء لأوقفها لحكمة يريدها ولإظهار تجليات قدرته ﷻ.

عبور الفجوة وملء الفراغ

كان العالم قد انتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) إلى وضع مأساوي، وسيطر اليأس على العالم.

وبدلاً من أن يلجأ إلى العدل والرحمة توحشت لديه معاني القوة، وأصبحت فلسفة نيتشة و(الفاوستية) -القائمة على البقاء للأقوى- هي المسيطرة..

وضاع معنى الحق أمام القوة، ومعاني العدل والرحمة أمام الجشع الذي أقبل عليه المنتصرون.

وسحبت كل الوعود الخداعة (بالعدل والمساواة والحرية) التي بذلت أثناء الحرب وقبيلها للشعوب المغلوبة على أمرها والقوى المستضعفة -بالطبع- لاعتبارات مصلحية توجبها الحرب.

وانفجر الموقف العالمي، وعمت الثورات، بعد أن خدع

العالم باتفاقيات سلام.. لكن الأمركان تقسيماً للتركة العالمية بين الأقوياء والمنتصرين على حساب المقهورين الذين عدّوا ذلك خيانة وغدرا ونكثا للعهود. فأصيبت الأخلاق الإنسانية في الصميم..

وهنا وجد الأستاذ "فتح الله كولن" أن البشرية لم تعد مرشحة لإنشاء قوى تعمل على العدل والرحمة. لقد فقدت الإنسانية عقلها وقلبها ورشدها.

مقاومة الغارة على الإنسانية

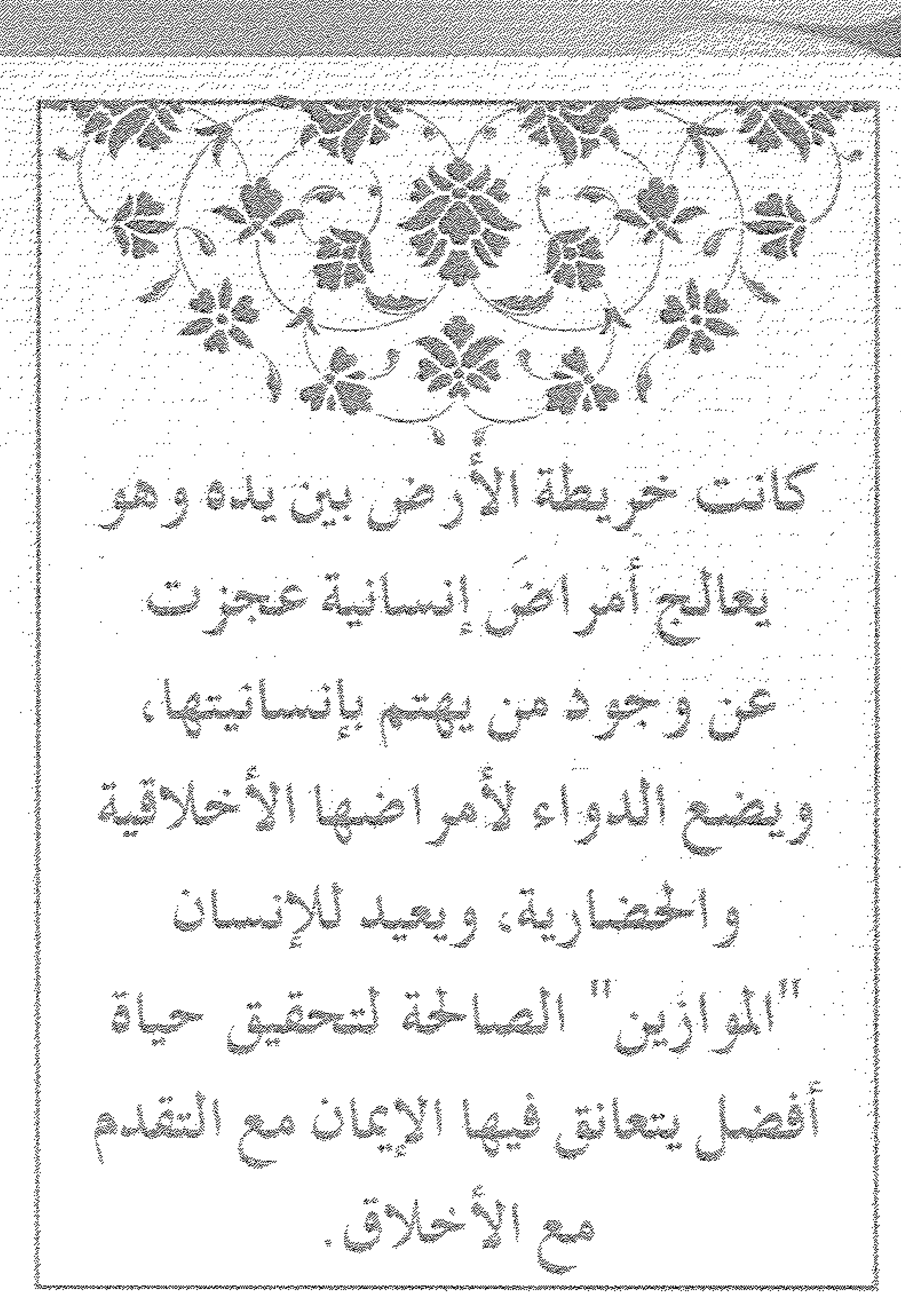
ونظر الأستاذ فلم يجد أمامه إلا الفكر الإنساني التربوي النبوي الشريف وأفكار السائرين في الطريق نفسه. ورأى أنه في مواجهة هذه القوى العالمية لا معنى للصدام أو الثورات أو الصراع، بل لابد من طريقة إنسانية نبوية لمخاطبة الإنسان نفسه.. قلبه وروحه وما بقي يقظا من عقله.

ووجد الأستاذ أن العالم المنتصر بعد أن هزم المقهورين بقوته العسكرية بدأ يغزو كل إنسان وكل بيت، فلم تعد كتائب المستشرقين، ولا قوافل المنصرين، ولا قوى النفاق الداخلية كافية لتحقيق "عولمته" والعبث بالعالم كله، بكل رجل وكل امرأة وكل شاب، كما يشاء، يصوغهم كما تصاغ التماثيل المنحوتة على النسق الذي يهواه فنانها.

وفي هذا السياق انتشرت أجهزة التلفاز والقنوات الداخلية والفضائيات الموجهة.

وانتشرت الإذاعات والصحافة عابرة القارات ودور النشر العملاقة. وانتشر ما هو أخطر من كل هذه على الحياة وهو "الإنترنت".

ولم ييأس الأستاذ، بل قرر أن يكون مصباحا يجوب العالم، وينافس الظلام في كل مواقعه. وبارك الله له في نياته، وفي رجال الخدمة والأقوال والأعمال. فسخر الجميع كل جهودهم لتنمية بذور الأيمان. وانطلقوا إلى العمل في كل المجالات؛ فهذه جريدة يومية مليونية، وهذه مجلات أسبوعية بالتركية وغير التركية. وهذه قنوات تلفازية قادرة على إنتاج تمثيلياتها وبرامجها.



وهناك جامعات ومدارس مبثوثة في العالم التركي وخارجه. وتتميز بالعصرية وبالأصالة التي تقرها القوانين. وهذه مدن جامعية. وهذه مستشفيات على أفضل وجوه عرفتها الحضارة الحديثة.

وكانت خريطة الأرض بين يده وهو يعالج أمراضَ إنسانية عجزت عن وجود من يهتم بإنسانيتها، ويضع الدواء لأمراضها الأخلاقية والحضارية، ويعيد للإنسان "الموازين" الصالحة لتحقيق حياة أفضل يتعانق فيها الإيمان مع التقدم مع الأخلاق، ويتم فيها التكامل بين الحق والقوة.

كان الأستاذ-بيقين- قد قرأ أحلام دعاة التغيير والتمكين، التي كل منهم أمل أن يرى استجابتها الحية في حياته أو في قبره، ويهنئ أصحابها الذين استحقوا من الله التمكين، والذين سيمّرون أمامه ويشاهدهم من قبره فيرى بشائر انتصار الإسلام على وجوههم.

وعندها يطلب منهم الدعاء، لأنه وتلامذته هم الذين بذروا البذور. وعاشوا شتاء الحياة في ظل الإلحاد وعانوا الكثير.

وها هم الحاصدون للزرع القادمون الوارثون للأرض الذين يعيشون ربيع الإيمان.. يمرون أمامهم ويشاهدونهم وهم في قبورهم، فيفرحون، ويسعدون بهم، ويقولون لهم: هنيئا لكم... اذكرونا، اسألوا الله لنا الرحمة والفردوس الأعلى؛ فنحن السابقون الزارعون للبذور في الشتاء القاسي، وأنتم اللاحقون الوارثون للأرض في ربيع الإيمان...

فالنور يلد نورا.. وصدق ربنا:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾(الأنبياء:١٠٦)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية، ورئيس تحرير مجلة التبيان / مصر.

أنموذج جديد
الأكوان المتعددة

صالح آدم*

هـ

هناك نقاط تحولات كبيرة في تاريخ علم الفيزياء في صدد فهم الألغاز المحيطة بخلق الكون. فهناك الآن نقطتا انطلاق لإيضاح الكون الذي خرج من العدم إلى الوجود، وهما تحتويان على جميع زوايا النظر في هذا الصدد:

الأولى: أن هذا الكون ظهر إلى الوجود من قبل خالقٍ له قدرة وعلم وإرادة محيطة بكل شيء.. والثانية: تشير إلى أن الكون ظهر نتيجة مصادفات عشوائية، أو تدّعي أن الكون نفسه أزلي وأبدي، فهو لا يحتاج إلى خالق. وهذه هي نظرةُ من ينكر وجود الخالق.

إن علم الفيزياء الذي يتم تدريسه في المدارس فيزياء نيوتن. والكون حسب هذه الفيزياء مثل الساعة، أي هو جهاز يعمل حسب معادلات رياضية معينة، ويطلق عليها اسم "قوانين الفيزياء". ويستند عمل الكون إلى قواعد معينة، لذا لا مكان هنا لاي احتمالات أو مصادفات. والفضاء والزمن حسب فيزياء نيوتن مسطحان ولانهائيان. فإذا كانت الساعة عندنا ١٠,٣٤ مثلا، فهي أيضا ١٠,٣٤ في المشتري وفي مجرة أندروميدا. والزمن في فيزياء نيوتن يشبه نهرا يسيل بتدفق منتظم.

النظرية النسبية

أما حسب النظرية النسبية الخاصة والعامة التي وضعهما ألبرت أنشتاين فالفضاء والزمان نسبيان. فإذا كانت هناك حادثة تستغرق ساعتين حسب مُراقبٍ، فهي قد تستغرق في نظر مراقب آخر ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات ونصف. وإذا كانت هناك حادثتان حدثتا في مكانين مختلفين (أحداهما في إسطنبول والأخرى في أنقرة مثلا)، وكان هناك مراقب في منتصف المسافة تماما بينهما، ولنفرض أن الحادثتين تقعان في اللحظة نفسها، فالحادثتان لن تكونا في وقت واحد لمراقب يتحرك؛ فإن كان المراقب يتحرك نحو الحادثة على يمينه، أي يبتعد عن اليسار فسيرى أن الحادثة في يمينه تتحقق قبل الحادثة الموجودة على يساره. وإذا كان العكس، أي إن كان المراقب يتحرك نحو اليسار ويبتعد عن اليمين، فسيرى أن الحادثة في يساره تقع قبل الحادثة في يمينه. إذن فالزمن يختلف في الفضاء حسب موقع المراقب.

وحسب النظرية النسبية العامة (التي قال عنها أنشتاين بأنها أكثر نظرياته إسعادا له) فإن للمادة تأثيرا معينا على الفضاء والزمان.



وتقوم المادة -حسب الكتلة التي تملكها- بالتأثير على هندسة الفضاء وعلى سرعة الزمن الجاري. فمثلا يكون تحدب الفضاء حول الثقوب السوداء -التي تملك مادة كثيفة جدا- لانهائيا. وهذه النظرية التي لها مثل هذه النتائج الغريبة تملك بنية رياضية مدهشة، وهي تتوافق حتى الآن مع جميع المشاهدات والتجارب. أما الجواب على سؤال: هل الكون نهائي أم غير نهائي؟ فهو يتوقف -حسب هذه النظرية- على مدى كثافة المادة التي يملكها الكون.

الفيزياء الكمية

ومع أن نظريات أنشتاين تبدو كاملة، إلا أنها لا تستطيع وحدها تفسير كيفية نشأة الكون ففي اللحظة التي حدث فيها "الانفجار الكبير" لم تكن القوانين الفيزيائية سارية. لذا تبقى الأسئلة حول تلك اللحظة وما قبلها دون جواب. فلماذا حدث الانفجار الكبير؟ وكيف حصل؟ وماذا كان يوجد قبل الانفجار؟ للإجابة على مثل هذه الأسئلة، أو في الأقل التخلص من لغز الكون وذِكرِ بعض الأشياء عن نشوئه فنحن نحتاج إلى الفيزياء الكمية.

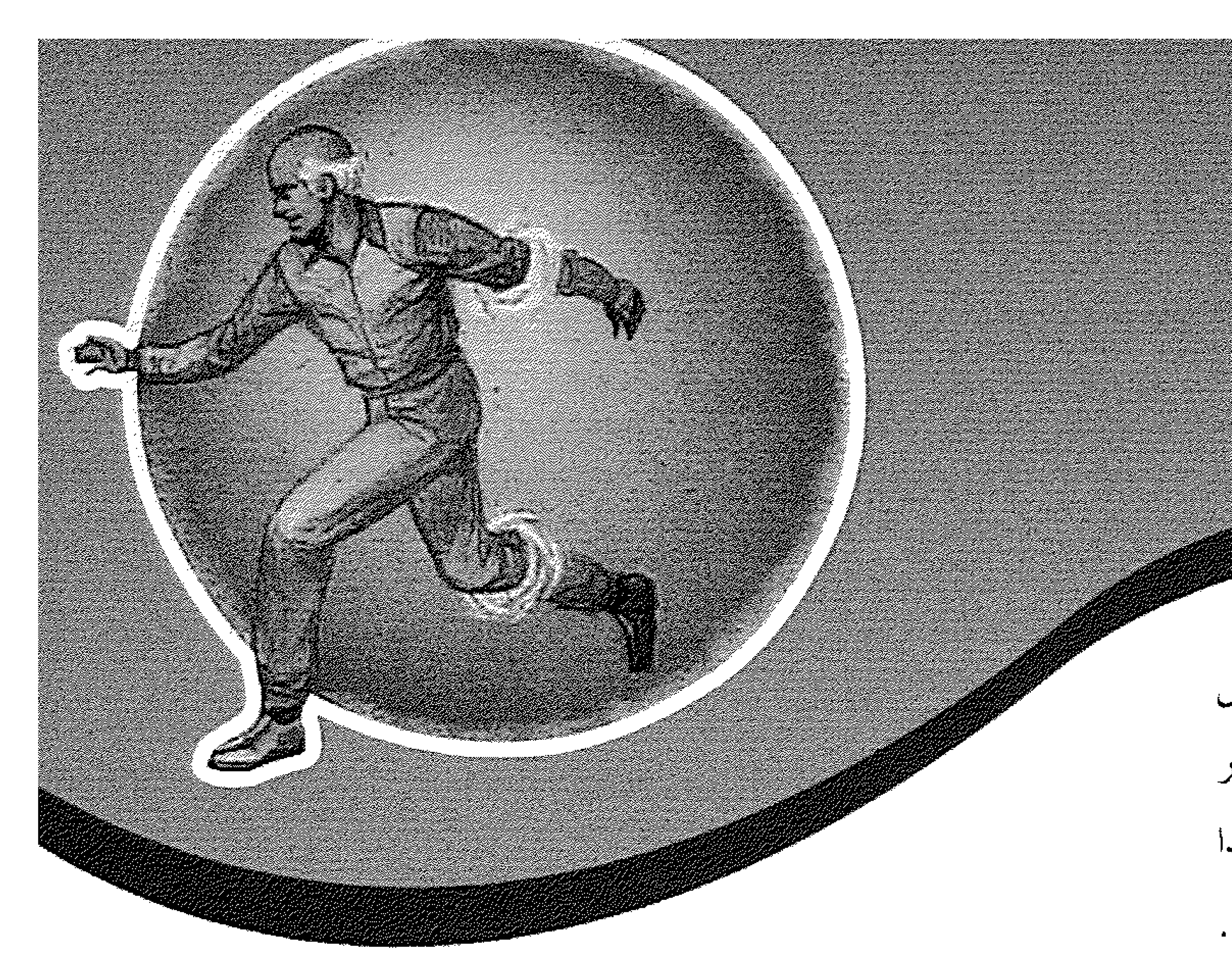
يستمر وجود أنموذج الساعة في فيزياء نيوتن في نظريات أنشتاين، وكذلك يستمر وجود السببية، أي العلاقة بين السبب والنتيجة، أو أن لكل حادثة سببا. ولكن الفيزياء الكمية التي تبحث عن طبيعة الذرة وعن طبيعة أجزائها، تمثل تغييرا جذريا أكثر. فهي تُدخل المُشاهد أو المُراقب في العملية، وتربط الأحداث بالاحتمالات. والظاهر أنه لكي نؤسس نظريات موثوقا بها حول بداية الكون فلابد من الاستعانة بالفيزياء الكمية، كما يستعان بهذه الفيزياء في فهم ما يجري في مستوى أجزاء الذرة. ولكن كيف يمكن التأليف والتوفيق بين النظرية النسبية والنظرية الكمية، فهو غير معروف حتى الآن. هنا تبدو نظرية "الأكوان المتعددة" وكأنها تشكل بديلا. فالعديد من الألغاز والمسائل التي لم يكن لها حل أصبح في الإمكان إيضاحها في إطار منطقي.

ما هي "الأكوان المتعددة"؟

في سنوات الخمسينيات قام الفيزيائي "إفرت" (Evertt) وبعض الفيزيائيين الآخرين بتقديم نظرية "الأكوان المتعددة" لإزالة الألغاز والتناقضات التي فتحتها الفيزياء الكمية في دنيا الفكر والمنطق، وطرح نظرة جديدة لكيفية حدوث الحوادث في الكون. فالكون الموازي لكوننا يحمل صفات مشابهة له، وهو (أي الكون الموازي) يتكون أيضا من الفضاء والزمن والمادة والمجرات والنجوم والإنسان.. بل يمكن القول بأن هذين الكونين متداخلان ويشغلان الفضاء نفسه. والمواد الموجودة في هذين الكونين تتبع قوانين الفيزياء الكمية، أي هناك أكوان عديدة مثل كوننا. فمثلا بينما تقرأ هذه المقالة الآن ربما أنت تتنزه في غابة في كون مواز آخر.

التواريخ البديلة

والتواريخ البديلة تشكل مثالا جيدا في فهم الأكوان المتوازية بشكل أفضل. فلو كان الجيش العثماني قد نجح في فتح مدينة "فيينا" فكيف كان التاريخ سيتغير؟ ولو استطاع محمد الفاتح فتح روما كيف كانت الدنيا ستتغير؟ أو لو كسب هتلر الحرب العالمية الثانية فماذا كان سيحدث؟ كل احتمال من هذه الاحتمالات تحقق في كون مواز، وكل عالم مختلف ترد صورته على الذهن، وكل ما يخطر على البال من تواريخ مختلفة فهو موجود في مكان ما وفي كون ما. وعندما نفكر فيما نقوم به من اختيار وترجيح بإرادتنا نفهم الأكوان المتعددة. فمثلا من رجح واختار دراسة الطب وقدم امتحانا ونجح في الجامعة أصبح طبيبا. ولو اختار دراسة علم الأحياء لأصبح عالما في البيولوجيا. ولو



أن رجلا اختار الزواج من امرأة لمجرد حسـنها وجمالها لفشـل في حياته الزوجية ولَمَا استطاع التفاهـم معها. بينما لو اختار امرأة متدينة ومناسبة ويمكن التفاهم معها لعاش حياة سعيدة. لذا فالاختيارات المختلفة التي نقوم بها تتحقق في أكوان أخرى مختلفة.

الخيال العلمي والأكوانُ المتوازية

وقـد تناول العديـدُ من أفلام وكتب الخيـال العلمي موضوع الأكوان المتوازية؛ فمثلا نرى في مسلسلة "ستارترك" (startrick) أنه بينما كان الكابتن كيرك وكادره يتهيؤون للانتقال من إحدى الكواكب إلى سفينتهم الفضائية بعملية "التآين" الروتينية، صادف دخولهـم إلى غيمة غاز متأين. فوجد الكابتن كيرك وكادره أنهم في سفينة مشابهة تماما لسـفينتهم ولكنها مختلفة عنها إلى درجة مدهشة؛ فمثلا وجد أن "مسترسبوك" هنا مع أنه يشبه نظيره في السفينة الأخرى، ولكنه شخص شرير تماما مع أنه رجل منطقي. وعلى عكس أفراد سـفينة "إنتربرايز" فإن أفراد هذه السـفينة الفضائية "إنتربرايز" الجديدة كلهم أشـرار. وفي هذه الأثناء كان الكابتن "كيرك" الشـرير وطاقمه قد نقلوا إلى سفينة "إنتربرايز" القديمة وتم سجنهم هناك من قِبل "مستر سبوك". وبعد وقت قصير سيفهم كل من سبوك الشـرير وسبوك الخيّر ما حدث. فعندما تعرضت السفينة الفضائية "إنتربرايز" إلى عاصفة متأينة من الغاز صادف وجود هذه السفينة مع نظيرها أو مع نسختها الأخرى في كون موازٍ. وعملية الاستنساخ عملية فائقة الدقة إن صرفنا النظر عن أن عملية الاستنساخ أبدلت الأشخاص الخيرين إلى أشخاص شريرين، وعدا ذلك فالاستنساخ دقيق وقريب من الكمال، ولو لم تقم العاصفة الأيونية بإنشاء علاقة زمانية ومكانية لما علم أفراد كلا الكونين أيّ شـيء عن وجود الآخرين. لقد تم تبديل مكان الكابتن كيرك مع نسخته السيئة ووجد الكابتن كيرك السيء نفسه سجينا في السـفينة الفضائية إنتربرايز للكادر الجيد. أما الكابتن كيرك الخيّر فقد وجد نفسه في سفينة إنتربرايز السيئة وضمن طاقمه الشرير. وفهم بعد وقت قصير بأن عليه أن يتظاهر بأنه أيضا من الطاقم الشرير، وذلك لكي يستطيع القيام بإصلاح بعض الأمور.

وفي مغامرة من مغامرات أحد أفلام سلسلة "غبش الظلام"، نشاهد امرأة تنتظر في موقف الحافلات، فإذا بها تواجه نسختها أو نظيرتهـا الأخرى التي تركت كونها وأتت إلى هذا الكون. ونرى أن هذه المرأة الآتية من كون آخر تريد أن تحل محل المرأة الأصلية، وتنجح في هذا، بينما يكون مصير المرأة الأصلية قضاء عمرها في مستشفى المجاذيب.

وفي قصة "لقاء ليلة أغسـطس ٢٠٠٢ " وهي إحدى قصص "من يوميات مريخي" (أي شـخص يعيـش في المريخ) نرى أن شـخصا من هذه الدنيا اسمه "توماس كوماز" سـكن في المريخ وصادف هناك كونا موازيا. وبينما كان يعبئ سيارته بالبنـزين تمهيدا لسـفر سمع شـخصا يقول له: "إن وجـدت صعوبة في قبول المريخ كما هو تسـتطيع الرجوع إلى الدنيا، فكل شـيء هنا مختلف؛ التربة.. الهواء.. القنوات.. السـكان الأصليون" أنا لم أر أيـا منهم حتى الآن ولكني سمعت أصواتهم"السـاعات... حتى سـاعتي تعمل بشـكل غريب، هنا حـتى الزمن مختلف".

وعندما كان توماس يسير في الطريق رأى آلة غريبة تشبه فرس النبي وبلون أخضر -أزرق- يقودها مريخي ذو عيون ذهبية فقال له: مرحبا. وأجابه المريخي بلغته: مرحبا. لم يفهم أي واحد منهما الآخر. جاء المريخي ولمس توماس، ولكن توماس لم يشعر بلمسه، ولكن بدءا يتحدثان بلغة واحدة. وعندما أرادا ان يتصافحا دخل يد كل منهما في داخل جسم الآخر وكأنهما لا يملكان يدا. يرى أحدهمـا الآخر ولكن لا يسـتطيع أي منهما لمس الآخر، فعلما أنهما يوجدان في كونين متوازيـين متقاطعين، كل منهما يحس بجسمه، ولكنه يرى الآخر كشبح، وحاولا أن يفهما السبب في

أن دنيا كل منهما تؤثر في الآخر تأثيرا متقابلا، ولكنهما مع هذا لا يستطيعان التّماس، ولا يصلان إلى نتيجة. عندما ينظر المريخي حواليه يرى مدينة جميلة حافلة بأشياء خارقة. أما توماس فهو لا يرى حواليه سوى بقايا مدينة متهدمة تحولت إلى صحراء صامته. صاح بالمريخي: "هذه القنوات فارغة كلها" أجابه المريخي: "إنها مملوءة بشراب أرجواني اللون". لقد أدركا أن ما صادفهما في لقائهما يعود إلى سبب متعلق بالزمن، ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى قرارِ أيّ منهما بقي في الماضي وأي منهما هو في المستقبل. ويتصور كل منهما أن عالمه هو العالم الحقيقي وأن عالم الآخر هو عالم الخيال. وهذه القصة التي تبدو غريبة يمكن إعطاؤها بعض الصحة من زاوية الفيزياء الحديثة.

الفيزياء الحديثة والأكوان المتعددة

تعد تجربة "الشقين" من أهم التجارب التي توضح الصفات المميزة للفيزياء الكمية. يوجد في التجربة مصدر يَبعث أجزاءً دون ذرية (مثلا يبعث فوتونات أو ألكترونات). وأمام هذا المصدر لوحة فيها شقان متقاربان لمرور هذه الفوتونات أو الألكترونات، وهناك خلف هذه اللوحة شاشة تصطدم بها هذه الفوتون. فعندما يكون الشقان مفتوحين تتكون على الشاشة زخرفة معينة هي عبارة عن مناطق مظلمة وأخرى مضيئة بشكل متعاقب. ولكن إنْ وضعنا الزخرفة التي تتكون عندما نسد أحد الشقين فوق الزخرفة التي تتكون عندما نسد الشق الآخر لا نحصل على الزخرفة الأولى، أي على المناطق المظلمة والمضيئة المتعاقبة، أو عندما نقوم بعملِ قياسٍ لمعرفةِ من أي شق تمر منه هذه الفوتون نرى أن هذه الفوتونَ تبدو وكأنها تمرّ من أحد الشقين، وهذا يؤدي إلى إفساد شكل الزخرفة الأولى. والنتيجةُ التي نحصل عليها هي أن حركة هذه الفوتون تتغير وتختلف عندما يكون أحد الشقين مسدودا عن حركتها عندما يكون كلا الشقين مفتوحين.

وتفسّر الفيزياء الكمية هذه الحادثةَ الغريبة بالتأثير المتقابل الذي يُحدثه احتمالُ مرور هذه الفوتون من أحد الشقين على احتمال مرورها من الشق الآخر؛ أي إن الفوتون تبدو وكأنها تمر من الشقين في آن واحد مع أنها فوتون واحدة. والتفسير المنطقي الوحيد هو أن هذه الفوتون تمر من أحد الشقين في كوننا هذا، وتمر من الشق الآخر في كونٍ آخر. هذه هي الأكوان المتوازية التي حاولنا حتى الآن إيضاحها بشكلٍ تدريجي. وعندما تصطدم بالشاشة تتحد هذه الأكوان وترجع كونا واحدا.

إن وجود أكوان متعددة ينير الطريق أمام علماء الكونيات الذين يهتمون بخلق الكون وبنيته.
ومن أهم المسائل التي تحتاج إلى إيضاح في علم الكونيات هي مسألةُ أن بنية الكون قائمة على توازنات دقيقة وحساسة جدا.

قطة شورودنجر

ومثال آخر يُظهر لنا الأكوان المتوازية هو تجربة اسمها تجربة "قطة شورودنجر". صممت هذه التجربة كما يأتي: هناك غرفة مغلقة وبداخلها قطة، وهناك في الغرفة مادة مشعة مع مادة سامة. ولنفرض أن احتمال تحلل المادة المشعة هو ٥٠٪ حسب الفيزياء الكمية، وأن هناك آلية تقوم باطلاق المادة السامة حالما تبدأ المادة المشعة بالتحلل، وهذا يؤدي إلى موت القطة. والآن هناك احتمال بنسبة ٥٠٪ بأن المادة المشعة تتحلل فتموت القطة، وهناك احتمال بنسبة ٥٠٪ أن المادة المشعة لا تتحلل، أي تبقى القطة سالمة ولا تموت. والآن -حسب الفيزياء الكمية- فالقطة (حتى فتح باب الغرفة والنظر إلى وضع القطة) تكون ميتة بنسبة احتمال ٥٠٪، وحية بنسبة ٥٠٪. أي هي في وضع مركب فيها الحياة مع الموت. وهذا طبعا وضع لا يتماشى مع المنطق ولا يمكن إيضاحه، أما في أنموذج الأكوان المتعددة فنقول: إن القطة حية في كون، وميتة في كون آخر، أي يقوم هذا الأنموذج بحل هذه المعضلة.

الثقوب السوداء وعلم الكونيات

إن نظرية النسبية العامة التي طورها أنشتاين هي التي طرحت موضوع الثقوب السوداء في الساحة العلمية. وتتكون الثقوب

السوداء عندما ينهار نجم كتلته ثلاثة أضعاف كتلة الشمس في الأقل بعد أن ينفد وقوده. وهي تملك بنية زمانية ومكانية تقوم بابتلاع كل شيء حتى الضوء، إذ لا يستطيع حتى الضوء الخروج منها. وعندما يقترب شيء من ثقب أسود تتغير بنيته الزمانية والمكانية نتيجة قوة الجاذبية الهائلة للثقب الأسود. ويرى بعض علماء الفيزياء أن الثقوب السوداء ممر مفتوح نحو الأكوان المتوازية، وهم يقولون بأننا لو استطعنا المرور من خلال ثقب أسود لوجدنا أنفسنا في كون آخر.

إن وجود أكوان متعددة ينير الطريق أمام علماء الكونيات الذين يهتمون بخلق الكون وبنيته. ومن أهم المسائل التي تحتاج إلى إيضاح في علم الكونيات هي مسألةُ أن بنية الكون قائمة على توازنات دقيقة وحساسة جدا بحيث ساعدت على وجود الأحياء ووجود الأحياء العاقلة والمدركة؛ أي تم اختيارُ كون واحد من بين العديد من الأكوان المحتملة ليكون مهدا ومقرا للأحياء العاقلة. ولو كانت خواص الكون مختلفة لما كان هناك أي احتمال ولا أي إمكانية لعيش الأحياء العاقلة فيه. فمثلا تكاد الجاذبية في الكون تكون مساوية لطاقة التوسع الكوني، كما أن هناك معايير دقيقة جدا في الثوابت الكونية. ولو دققنا هذا الموضوع لعلمنا بأن الكون قد تم تهيئته وتحضيره ليكون مناسبا وملائما لنا ولوجودنا.

إن نظرية الأكوان المتعددة تقول بأن جميع احتمالات الأكوان موجودة. وفي هذا المضمار هناك أكوان لا توجد فيها أحياء، وإن سبب مشاهدتنا بأن كل شيء مضبوط بدقة يعود إلى أننا نعتقد بعدم وجود أيّ كون (أو أكوان) لا يقوم على توازنات دقيقة؛ بينما تدل الشواهد على وجود أكوان وعوالم أخرى مختلفة. وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه العوالم عندما أشار إلى وجود الملائكة والجن وهم مخلوقات لا تُرى بالعين. كما وصف القرآن المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب. إن وجود مراتب مختلفة للحياة يحياها بعض الناس، وكذلك وجود العديد من المعجزات والكرامات والرؤى الصادقة التي تخبر عن المستقبل تدل على وجود عوالم أخرى غير عالمنا هذا، فنحن مثلا لا نعرف أبعادَ وخواصَّ عوالم أخرى كعالم القبر والبرزخ، ولا عوالم الجنة والنار. فهذه العوالم موجودة في الوقت نفسه ولكن في أبعاد زمانية ومكانية مختلفة، وهذه الأبعاد الزمانية والمكانية هي خارج الوجود المادي الذي نعرفه وخارج تصوراتنا، مثلا قد تكون في عالم الأثير أو عالم الفوتونات والأجزاء دون الذرية. أو حتى في عالم لا ندرك ماهيته أبدا، وهناك عوالم سنلقى فيها الحساب ثوابا أو عقابا. مثلُ هذه العوالم أصبحت قريبة حاليا من أذهاننا بواسطة علم الفيزياء الحديث. والحقيقة أن أسس العديد من مواضيع العقيدة تعتمد على الإيمان بالقدر، والموت، والآخرة، والبعث، والنشور، ويوم الحساب. هذه الأسس لا يمكن للوجه البارد لعلم الفيزياء الوضعي تفسيرها أو التدليل عليها، وهي لا تحتاج إلى مثل هذا التأييد والتدليل أصلا.

نشأة هذه الفكرة

إن فكرة الأكوان المتوازية بدأت أولا في كتب الخيال العلمي، ثم أصبحت موضوعا للفيزياء الكمية، وهذه إشارة مهمة؛ ففي السابق كان العديد من الحوادث التي كنا نجد صعوبة في تفسيرها أصبحت الآن في عالمنا الحقيقي شيئا عاديا. مثلا خَزْن جميع الصور والأصوات في حاسبات عملاقة، ثم وَضْعها كشاهدة أمام الإنسان، أي أصبح من السهولة فهمُ وتصورُ إمكانية حفظ جميع أعمالنا في حياتنا، وتسجيلها في عالم آخر خارج عالمنا هذا. إذن فما كان خيالا في السابق أصبح حقيقة. فكل ما يخطر على البال أو لا يخطر يكون ممكنا، لأن قدرة الله تعالى الذي خلق كل شيء قدرة لانهائية وعلمه لانهائي ويستطيع فعل كل شيء. وعندما يخبرنا الله تعالى بهذا في كتابه المحفوظ الذي لم يتغير فيه حرف واحد لا يبقى عندنا أي تردد أو شك. وسنرى عندما يأتي أجلنا كيف أن روحنا ينتقل من هذا العالم إلى عالم آخر بكل سهولة وكأننا انتقلنا من غرفة إلى أخرى. على أننا يجب ألا ننسى بأن سهولة هذا الانتقال أو صعوبته متعلقة بما سنواجهه في ذلك العالم الآخر من مَواقفَ ومَناظر، وذلك حسب أعمالنا في هذه الدنيا. وسنعلم عندما نواجه الحقائق في ذلك العالم كيف أن قولنا: "الحمد لله" بعد تناولِ تفاحة ينقلب في كونٍ آخرَ وفي عالم آخر إلى شجرة أو إلى قصر منيف. ■

(*) باحث في جامعة الفاتح / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



سجناء الوجود

أديب إبراهيم الدبّاغ*

نحن البشر مكبَّلون بالوجود، ومشدودون إليه، ومقيَّدون بأحكامه، لا نستطيع أَنْ نَفُكَّ أنفسنا عنه، أو أنْ نتحرَّر منه، وحتى لو أردنا أنْ نعود -كما كُنَّا- عدما محضا فما من وليجة في جدار الوجود نلج منها إليه. ومنذُ قُدِّرَ لنا أنْ نرتدي الوجود، أو أنْ يرتدينا الوجود ونحن سجناؤهُ أردنا أم لم نرد، وحبيسو إرادته وفعله فينا أردنا أم لم نرد. فنحن في علم الله تعالى موجودون قبل أنْ نوجد، وما دمنا موجودين في علمه تعالى فنحن إذن مسكونون بالوجود من قبل وجودنا ومن بعده، غير أنَّ هذه "الموجودية" تتشكل بأشكال مختلفة، وتتظاهر بصور متعددة، فنحن موجودون قبل الحياة وبعد الحياة، وفي الموت وبعد الموت، ومهما ارتقت صور "وجودنا" من أدنى درجاته الترابية إلى ذروته الأخروية، فهو واحد لا يتغير ولا يزول ولا يعتريه العدم، لأنه مرصود بالأساس للبقاء والخلود.

هذه القضية من توكيدات النورسي رحمه الله، تناولها بقلمه من زوايا فكرية متعددة في أكثر من مكان من رسائله "رسائل النور" وهي تشكل -بالقطع- واحدا من أعمدة فكره العملاق، حيث استطاع من خلالها أن يحلَّ إشكالات الوجود عامةً ووجود الإنسان خاصةً ويجيب على سِرِّ الخلق والإيجاد.

فسرُّ الخلق -عند النورسي- الحبُّ والجمال؛ ففي الحب قوة الخلق، فهو تعالى فياض بالحب والخلق معا. ولأنه تعالى أحبَّ الإنسان خَلْقه، واصطفاه لنفسه ليكون مرآة صافية تتشرب جماله الأقدس في أسمائه الحسنى وتعكسه إلى الآخرين من المشاهدين، وهذه المدركات العميقة للجمال الإلهي الأقدس تمنح الإنسان السيادة على نفسه، ثم السيادة على العالم.

السقوط في المحدودية

إنَّ أشدَّ ما يخافه "النورسي" على الإنسان السقوط في المحدودية

في الوقـــت الذي أهّلَهُ خالقه لكي يحوم فوق آفاق المطلق الإلهي. فالإنســـان البطولي لا يذهلنا ويثير إعجابنـــا ومحبّتنا إلاّ إذا رأيناه مَعْكسَـــا لجلال الخالق وجماله، وهذا هو الإنسان الذي ينبغي أن نحرص على رؤيته والتقرّب منه، لأنّ النظر إلى وجهه عبادة كما يقول علماؤنا.

إنّ حرصنا على كشـــف الجوهر الجمالي في تكوينة الإنسان يقودنا إلى عوالم الجمال الماورائية، والتعرُّف على أمداء عمقها في النفس والكون. وهذا الجوهر الجمالي لا يكشف عن نفسه إلاّ من خلال ما يخوضه الإنسان من تجارب إيمانية مركزة تصهر طبيعته الطينية في أتونها لتخرج بعد ذلك مبرأةً من شوائبها.

فإنسان من هذا النوع هو قوة للحياة يزيد في عمقها وغناها، أو قل هو الحياة بقوتها واتساعها. فأي حياة إذا خَلتْ من خطوة جديدة في سلّم الإيمان فهي حياة خاوية غير جديرة بأنْ يحياها الإنسان.

إنّ النضال الروحي الممتدّ امتداد حياته هو شكل من أشكال الوجود المركز ينتج عنه حبٌّ فهيم لكونية الإنسان ولعظمة قواه الوجودية المتجذرة في أعماق الوجود، ويظلُّ الإنسان محرابا يتعبَّدُ فيه الوجود خالقَهُ ما لم ينكص على عقبيه فَيُعْمِل معْوَلَهُ هدما في المعبد والمحراب في ساعة من ساعات جنونه ليتحول هو نفسه إلى أنقاضِ إنسان، وشظايا مخلوق لا معنى له ولا هدف.

فالإنسان فكرة سامية في ذهن الوجود قبل أن يكون أيَّ شيءٍ آخر. فلا يستطيع داهمُ الفناء أنْ يدهمه، ولا عناصر العدم أن تطاله. فإذا ما أدرك الإنسان حقيقة وجوده، وعرف أنه مصون الوجود، محفوظ للخلود شعر بأهمية وجوده، وأحسَّ بأنه راسية من رواسي الأرض الشامخات، تنهار الأرض إذا انهار وتتهاوى الدنيا إذا تهاوى.

فالوجود بقدر ما هو ثوب إلهي أُلبسَـــهُ الإنسان، وإكرام له، وإنعام عليه، فهو كذلك مســـؤولية عظمى توجب على الإنسان صيانة "موجوديته" والحفاظ على طهارتها وقدســـيتها. فلا يأتي من الســـلوكيات والمعتقدات ما يتنافى وشرفَ هذه "الموجودية" حتى يَلقى بها بارئها كما كانت في أول تلبُّســـها به، وهذا هو ما تســـعى إلى تحقيقه كافة الأديان. ويُحذِّرُ "النورسي" الإنسان من أن يعيش محصور الذهن بـــ "هنا، والآن"، ويأبى أن يعرف شيئا عن "هناك" وعمّا بعد "الآن" تاركا "ما ورائيات" هذا العالم وراء ظهره، مستهينا بكونه حبيس الوجود، ومرصودا للخلود ومأمورا بالخلاص من إسار الزمن لينطلق حُرًّا نحو الآماد الموغلة في بعدها الأخروي فيحظى بالقرب والمشاهدة.

فالجمالية السرمدية تأبى أنْ تُشاهَد بعين زمنية محدودة الرؤية، وقاصرةٍ عن الإحاطة والإدراك، فتنشـــئُ في الإنســـان نوعا من السرمدية لكي يكون قادرا على استشعار هذه الجمالية وتشرُّبها كِفاءَ أشواقه الملتهبة إليها كما يشير "النورسي".

الانتحار الوجودي

مـــرة وعلى حين غِـــرَّة صرخ مفكر غـــربي في حومة من اليأس البئيس: "لو كنتُ موجودا فأخبرني مَنْ أنا؟ ولماذا أنا موجود؟".

إنّ هذه الصرخة المفزعة تكاد تكون لســـان حال جمهرة لا يستهان بهم من مفكري الغرب المعنيين بشؤون الإنسان الفكرية والروحية. إنها إشارة غير مقصودة إلى تدهور حضاري بدأ يأخذ أبعادا مختلفة في شتى مناحي الحياة. وهو شعور غامض بالانفصال عن دورة الحياة وعجلة الفاعلية الوجودية، وانحدار سريع للعقل نحو ظلمات "اللاجدوى" وانتحار عقلي مخيف. وكلُّ ذلك بسبب المحدودية الزمانية والمكانية التي وضع فيها نفسه والانكفاء على "هنا، والآن" وغياب الأخروية عن الحضور لدى عامَّة البشـــر. وهذه هي مأساة العالم اليوم.

المرعوبون

إنّ مثالية الإنسان وألمعيته وعنصره الكريم يوجب على كلِّ مُحِبٍّ له أن يســـارع ليحجز بينه وبين السقوط في مهاوي محدوديات فكرية ونفســـية تمنعه من الانداياح الروحي والفكري نحو آفاق المطلق الإلهي على الرغم من أنّ الاستشراف الفطري في دواخله يهيـــب به في كلِّ مَرَّةٍ أن ينهض من تحت قهر محدودياته ليلامس قِممَ المعاني العظيمة التي يعلي الدينُ من شأنها في النفس والكون.

أمّا المرعوبون من وجودهم، والمنســـحقون تحت ثقله وتبعاته أولئك الســـوداويون المكتئبون المساطون على الدوام بشواظ من جحيم كيانهـــم الداخلي، كيف ننتظر منهـــم فكرا جادا يثري الإنسان ويغني حياته، وأنّى لهم القدرة على الإتيان بجديد روحي قادر على التأثير بمســـارات العالم الماديـــة...؟ بينما يبقى إيمان الإنسان بخلود وجوده يعزز قوى روحه، ويشحذ طاقات فكره، ويفجر ينبوعا دائم التدفق من الغبطة الجذلى بالحياة.

إنّ الترابيين الذين لا يجدون في المصير الترابي الذي سيؤولون إليه -في زعمهم- ما يوجب الرعب، ولا يرون في ضياع أفكارهم وأحلامهـــم وآمالهم بالحق والعدل والخير والجمال ما يبعث على الاحتراق أسفا، ولا تهمهم أشواق أرواحهم ولا أفكار أفئدتهم...

أولئك المبشرون بالفناء، والمترنمون بالعدم... كم جلبوا على البشرية من خطايا، وأتوا على الإنسان من عذابات، وجرّعوا العالم من ويلات... فكم من مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته مَرّوا عليها بعيونٍ عُمي، وكم من ينبوع من الجمال الأقدس لم يرشفوا منه -على شدة ظمأهم- ولو رشفة واحدة، وكم من سطور على صحيفة الكون خطّها القلم العلوي لكنهم لا يحسنون القراءة.

الجدب الروحي

إنّ خطورة "الجدب الروحي" أنه لا يتوقف عند حد، بل يمتدُّ في تصحره حتى يأتي على منابع الفكر والإدراك، ويجتاح بسُموه حديقة الوجدان. وعند ذلك لا يأتي من الإنسان شيء ذو بال، بل لا يمكننا أنْ نتصور إلى أيِّ دَرَك يمكن أن يتردَّى إليه مثل هذا الإنسان المجدب من كل مكان.

بل ما جدوى ما أنجزه الإنسان من عظائم الأمور، وحققه من جلائل الأعمال، إذا كان مصير ذلك الزوال والعدم؟! ومن ثمّة فما جدوى وجوده هو بالذات؟ وما جدوى الوجود بأسره الذي يبدو -من غير الحياة الآخرة- فارغا من المعنى والمغزى؟!

فالموت عندنا نحن المسلمين، هو تلك النقطة من الحياة التي يصل إليها الإنسان لسبب ما وينعدم عندها وزن الزمن الدنيوي عليه، فينفلت من جاذبيته، وينفك من قيده، ليلج فضاء الزمان الأخروي الأبدي والسرمدي، مثَلُهُ مثل الفضائي الذي لا بُدَّ له من المرور في نقطة "انعدام الوزن" قبل أن يتيسر له الانطلاق منفلتا نحو الأعماق من أمداء الكون المهول.

لقد كان هذا المفهوم عن "الموت" حاضرا دائم الحضور في أذهان المسلمين الأوائل، وكانوا في أوْج حسهم الأخروي يوم خرجوا على الدنيا بحضارتهم الزاهية التي أثْرَتْ الروح الإنساني، وأمدَّتْ شجرة الحضارة بالحياة والرواء قرونا عِدَّة، ولم يجدوا أنفسهم أبدا في حاجة إلى خنق هذا الحِسّ، وإيقاف نبضه من أجل أنْ يحسنوا التفكير، ويجيدوا الإبداع، ويزيحوا الأستار عن أسرار الأشياء، بل كان الأمر على العكس من ذلك تماما، حيث غدا هذا الحسُّ دافعا ومحفزا لرغبات المسلمين في الخلود عَبْرَ أعمالهم وأفكارهم ومعارفهم، ما دامتْ ستكتسب شرف رضا الله وقبوله والثواب عليها في حياتهم الأخروية.

الانعتاق من أسر المحدود

وقد استطاع "النورسي" رحمه الله تعالى أنْ يشخص أزمة المسلمين منذ البدايات الأولى للقرن العشرين وعزاها إلى فقدان القابلية الحضارية فيهم على التواصل ومواكبة الزمن، بسبب تعطل المحرك لهذه القابلية بخمود لهب التوق للانعتاق من أسر "المحدود" والامتداد بأفكارهم وأعمالهم في "اللامحدود" وبهمود حماسهم في كسر قيد الزمن الدنيوي عن أفكارهم وأعمالهم، بحيث تكتسب شرف الامتداد في الزمان الأخروي الذي تَصُبُّ في حافظته جميع الأعمال والأزمان، ولم يعد "الخلود" هاجسهم الأول ومحركهم الدائم في العمل والفكر، فلم يبدعوا مثلما كان يبدع أوائلهم، ولم يستطيعوا أن يضيفوا في الفكر أو العمل شيئا مهما يمكن أن يسجل باسمهم خلال ذلك القرن.

"والنورسي" يرى أنَّ خلق الإنسان وإلباسه لباس الوجود كرم إلهي، وعطاء رحماني، لا يمكن عقلا وحدسا أن يَستردَّ الكريم هباته، أو يسترجع عطاياه، فطالما أعطانا الوجود -جَلَّ شأنه- فلن يسلبه مِنّا.

والنورسي لا يني يؤكد على طهر الحياة وقدسيتها، وأنها أصل الخلق والوجود، بينما "الموت" خَلْقٌ عارض ليس له قوة إلغاء الحياة، أو إيقاف مَدِّها الزخّار إلى بحر الأبدية والخلود، فالموجود له صورة معنوية في علم الله تُمثل مُقَدَّراته الحياتية، وهي تُلازم صورته المادية وتنتقل معها في مراحل نموها، ثم تتبدل تلك الصورة والمقادير مع مسيرة حياته تبدلا يلائم الحكمة في خلقه، وينسجم كليا مع المصالح المركبة عليه.

فبقدر ما في نفوسنا من توق وحنين فطري إلى مشاهدة الجمال والأنس به والانجذاب إليه، فإنَّ الجمال نفسه يبادلنا هذا التوق والشوق، ويطلب لنفسه صفوة من المشاهدين الذواقين الذين يحسنون المشاهدة، ويتأنقون في حضرته، ويطهرون أحاسيسهم ويهذبونها بين يديه. وإنه ليفرح بانشداه أرواحهم ورعشة أفئدتهم بإزاء ما يلمسونه من فخامة جماله وعظمة معناه، ويدعوهم لكي يصغوا إلى نغم ألوانه وأضوائه، ونبل لغته.

وفي تعمقه في سِرِّ الجمال والجميل يكتشف "النورسي" سِرَّ الخلود الموعودين به في عالم الغيب، فيلخص هذا السِرَّ بهذه العبارة الوجيزة: "أبدية الجمال تستلزم أبدية المحبِّ المشتاق". ■

(*) كاتب وأديب عراقي.



ترجم إيمانك إلى عمل واجمع بينهما تكن مؤمنا حقا... روّض نفسك على ذلك، وارفع مشاعرك إلى آفاق السرمدية... إنْ فعلت ذلك، أتاك العالم متطامنا بين يديك تحركه كيف تشاء...

* * *

مدرسة تركية في مصر

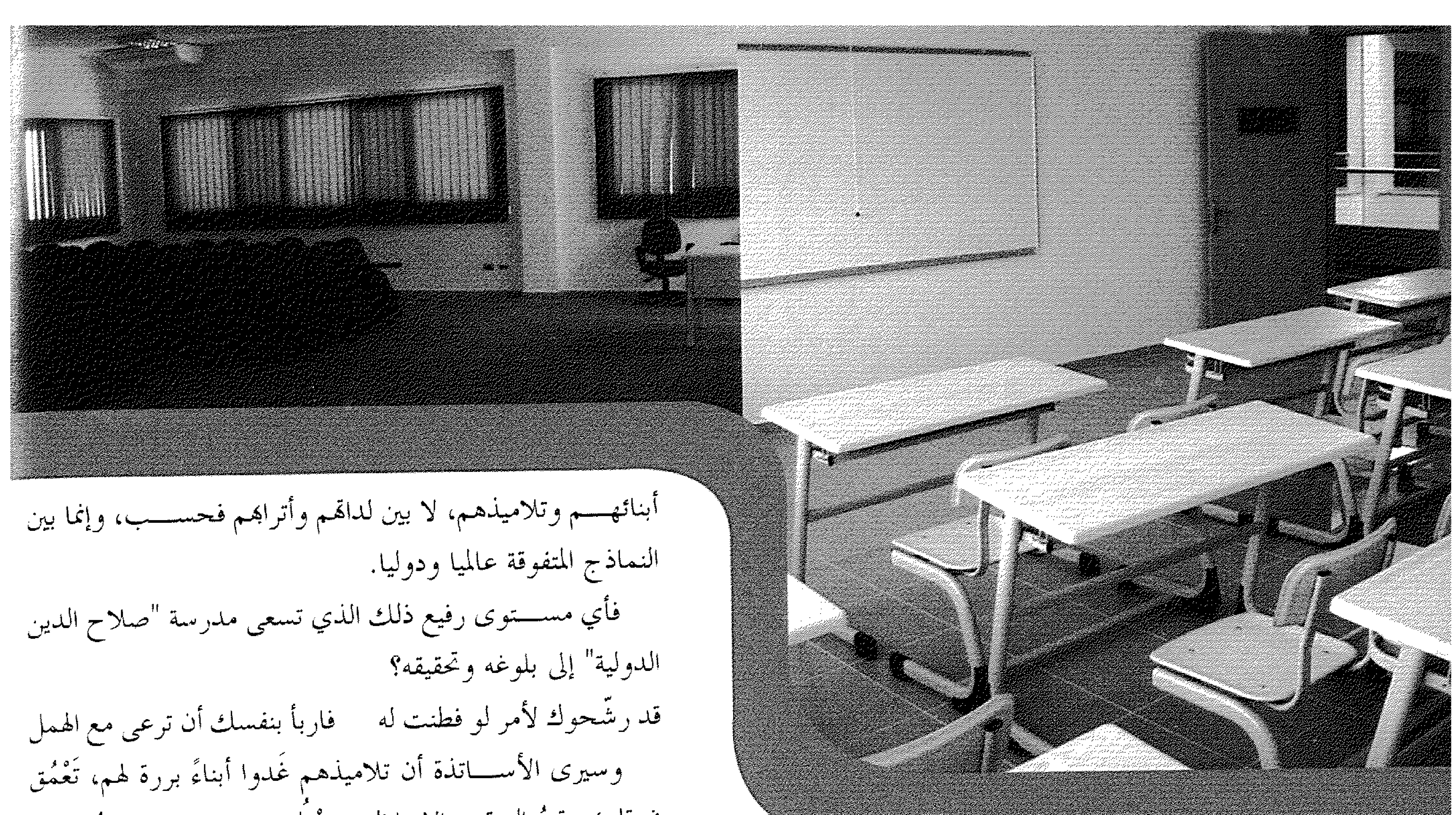
مدرسة صلاح الدين الدولية

أ.د. محمد الأحمدي أبو النور*

هذه باقة نضرة يانعة، وتحية عطرة يافعة، نهديها للذين أحبوا مصر وآثروها بهذا الصرح العملاق "مدرسة صلاح الدين الدولية" فبنوا بذلك في قلب كل مصري صرحا من الحب الوثيق، والتقدير العميق، للشعب التركي الشقيق، قمة ووسطا وقاعدة.

نحن بإزاء ركائز ثلاث: ١-المدرسة. ٢-صلاح الدين. ٣-الدولية.

تمثل هذه المدرسة قيمة حضارية باسقة، تعني المجال المهيأ والملائم للتربية والتعليم، وسط مجتمع نموذجي يضم الطلاب الذي سيفدون إليها من شتى ربوع مصر، ومن مختلف أطيافها ليحظوا برعاية علمية رفيعة المستوى يتساوق فيها



شـحذ الهمّة، بتوقد العزيمة، باكتشـاف الموهبة، باستثمار هذا وذاك في تنمية علاقـات التنافس العلمي، والتآخي الإنسـاني والتعاون العالمي، والذي ينشـأ في مراحل هذه المدرسة ليتساوق مع طموحات أبنائها حتى بعد أن يتخرجوا فيها مهما تناءت بهم الأقطار، أو تنوعت فيهم التخصصات، أو تفاصل بينهم الزمن.

أساتذة وطلاب

وأحسب أن مجتمع المدرسة سيمثل بأطيافه الدولة مصغرة:،ويوجه إلى نهج التعاطي والتفاعـل الذي ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين المواطنين؛ الأمر الذي سـيراه الطلاب مطبقا في هذه المدرسة ذات السمات المتميزة، والتي سيرون فيها اختلاف المواد، وتنوع التخصصات، بيد أنهم سـيعلمون عن أساتذتهم قوة التلاحم بين أصـول هذه المواد، وعمق التآخي بـين غاياتها. وذلك لتكوين المواطن الصالح أسريا ومجتمعيا، والطالب النموذج علميا وأخلاقيا، والتلميذ الإنسان محليا ودوليا.

وأحسب أن الأساتذة -هنا- سيمثلون بآفاقهم الثقافية الرحبة وبأخلاقهم الإنسانية السـمحة مُثُلا عليا يجد فيها الطلاب نعم الأسوة ونعم المثل! كما أحسب أن عاطفة الأبوة ستكون صاحبة القدح المعلىّ في المدرسة لدى مدرسيها. وسيلمس الطلاب مدى حرص أسـاتذتهم على إفادتهم علميا، وعلى تزكيتهم أخلاقيا، بل سيرون هؤلاء المدرسـين أشد ما يكونون حرصا على تفوق أبنائهـم وتلاميذهم، لا بين لداتهم وأترابهم فحسـب، وإنما بين النماذج المتفوقة عالميا ودوليا.

فأي مسـتوى رفيع ذلك الذي تسعى مدرسة "صلاح الدين الدولية" إلى بلوغه وتحقيقه؟

قد رشّحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وسيرى الأسـاتذة أن تلاميذهم غَدوا أبناءً بررة لهم، تَعْمُق في قلوبهم قيمُ التوقير والإجلال، وتعْظُم في نفوسـهم شيمُ المحبة والإكبـار لمعلميهم الآباء، وآبائهم المعلمين الذين أعطوا المثل في الثقافة الواسعة، والعلم الغزير والأبوة الحانية.

وأكاد أوقن أنه سـيكون لهذا وذاك ردّ فعل حميد بل ودود لدى السادة المدرسين؛ يدفعهم إلى مضاعفة الجهد، وبذل أقصى ما يسـتطيعون لتنمية مهارات أبنائهم، يغمرهم الرضا ويحدوهم الأمل، ويحتويهم مزيج من السعادة والثقة.

وعندئذ سنرى كيف ستعود للمدرس هيبته، وكيف ستعظُم مكانته الأثيرة في نفوس تلاميذه وبنيه.

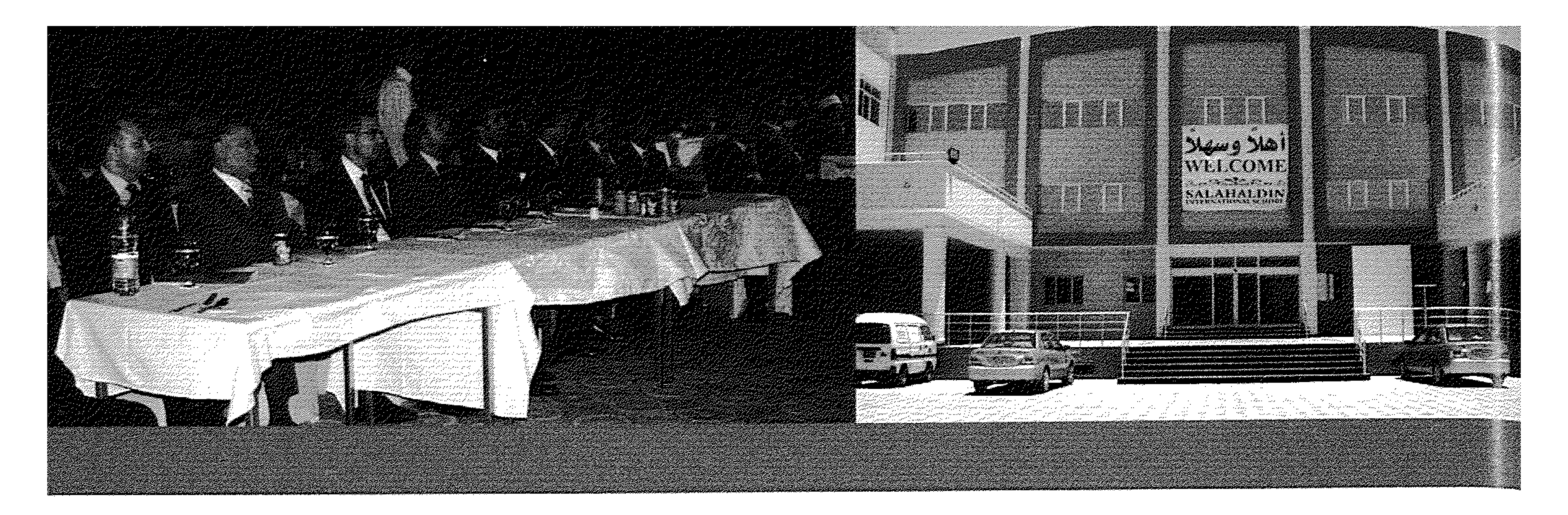
أجل، وسـيلمس المدرس -وهو في المدرسـة- كأنما هو في بيته يحوطه بنوه بما يجب عليهم نحوه من بر وتوقير لقاء ما يلقيهم -هو- من عطف ومرحمة، وتعليم وتربية، وحرص حريص على أن يبلغ بهم أرفع مستوى علمي وأخلاقي معا.

أبوة الأستاذ وبنوة التلميذ

هذا وذاك، أعني الأبوة من الأستاذ والبنوة من التلميذ هما مفتاح النجاح والتطور والإبداع في العملية التعليمية.

وقد اصطفـى الله تعالى نبيه محمدا ﷺ معلما للدين، ومزكيا للخلق كما قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٤)

وإذًا فقـد بعث الله نبيه ﷺ معلمًـا، كما بعثه متمما لمكارم الأخلاق؛ وفي الأمرين عز الدنيا وسعادة الآخرة.



بيد أن نجاح المعلم يكمن في حرصه الحريص على هداية من يعلمهم ثم في رأفته بهم وحنوه عليهم، ولا يتم ذلك إلا بالأبوة الحانية التي ينبئ عنها قوله ﷺ " إنما أنا لكم مثل الوالد، أعلمكم" (رواه أحمد).

وبالتَّناغم بين الأبوة والتعليم فيها تُجسِّد لنا المدرسة أمرًا من أمد بعيد:

كان حُلْمًا، فخاطرًا، فاحتمالا ثم أضحى حقيقة لا خيالا

أعني ما سبق أن تَغَنَّى به الشعراء، وتَمنى تحقيقَه الآباء، عرفانا بحق المعلم، وتوخيا لحسن الإفادة منه، وقياما بما يجب له من حق؛ حيث قال قائلهم:

قم للمعلم وفِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أَعَلمتَ أشرف أو أجلّ من الذي يبني وينشئ أنفسا وعقولا

وسندرك بعدئذ أن المواءمة بين المحلية والدولية، وبين الدين والدنيا، وبين العلم والخلق، وبين التربية والتعليم، وبين الأبوة والتدريس... إلى آخر ما تتميز به هذه المدرسة... سندرك أن هذه المواءمة هي التي ستُظْفِرُنَا من الطلاب بالنموذج الفريد في بيته، والمتميز في ثقافته، والبار بآبائه في بيته ودراسته، والصديق النافع لمجتمعه وبيئته، والسفير بعلمه وإبداعه إلى العالم -بعدئذ- من حوله.

وهذا النموذج الفارد من الطلاب، هو الذي يرى فيه القاصي والداني: أن يكون منه بمشيئة الله وعونه: العبقري والمبتكر والمفكر والمخترع، مع نبل في النفس، وزكاء في الخلق، وسمو في السلوك.

وهذا النموذج الفريد هو الذي سيتجدد لنا به خطاب الدين متسقا مع العقل والعلم والحكمة مبشرا بحاضر مشرق وغد واعد مصداقا لنحو قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧). ذلك وقد أحطنا بالركيزة الأولى خبرا.

إيحاءات من اسم "صلاح الدين"

أما الركيزة الثانية فهو أنها مدرسة صلاح الدين. وهو يوسف بن أيوب المظفر صلاح الدين الأيوبي، الملك الناصر (٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م).

أصله من أذربيجان، وولي أبوه أعمالا في بغداد والموصل ودمشق ،هذه المدينة التاريخية التي كانت حاضرة الخلافة الأموية، وبها نشأ صلاح الدين، وترعرع بين أفيائها العلمية وتفقه وارتوى من الأدب، وروى الحديث بها والإسكندرية، فبينه وبين كل شاد في الفقه والأدب والحديث صلة حميمة، وآصرة وثيقة، ووشيجة تاريخية.

نذكر له بكل الفخر والاعتزاز أنه رغم قساوة الظروف السياسية -آنئذ- وتجمُّع الغرب كله على الشرق ما وهن ولا ضعف ولا استكان، وبفضل الله عليه ثم بعمق إيمانه، وصدق يقينه، ورِيًّا ثقافته الفقيهة والحديثية والأدبية استطاع أن يقود الأمة ويعبر بها من الفرقة إلى الوحدة ومن الضعف إلى القوة ومن اليأس إلى الأمل، وكوّن القوة العلمية والإيمانية والعسكرية، كما شحذ عزائم الجيوش، وجنّد طاقات الشعوب حتى دانت له البلاد من آخر حدود النوبة جنوبا إلى برقة غربا، ومن بلاد الأرْمن شمالاً إلى الجزيرة والموصل شرقا، فرد الأعداء على أعقابهم حتى ولّوا مدبرين، واسترد عكا وطبرية ويافا والساحل الشمالي إلى ما بعد بيروت، كما حرر بيت المقدس.

وكم لذكرى صلاح الدين من حقوق، وكم لصلاح الدين علينا من واجبات: أن ندرس تاريخ المشرق، وإباءه المشرّف لنتملى دروسه وما فيها من عبرة.

أيضا نأخذ من صلاح الدين العلم والعمل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين يعتدون على المسلمين هي السفلى والله عزيز حكيم.

صلاح الدنيا بصلاح الدين

بيد أننا نأخذ "صلاح الدين" بمفهوم الكلمة المركبة وليس فحسب بمفهوم أنها عَلَم على الملك الناصر... صلاح الدين، أي صلاحية

الدين لسياسية الدنيا في كل زمان ومكان.. صلاح الدين، أي إصلاح الدين لدنيا الناس بالحكمة وحسن الموعظة وبالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.وليس بأي سلوك آخر؛ فقد أمر الله أن نقول للناس حسنا، وقد نهى الله أن نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.

وحين يتذاكر أبناء المدرسة هذه المعاني فسيترجمونها عزائم متقدة، وإرادات فاعلة، وآمالا لا تخبو لتحقيق ما يصبون إليه من غاية، وما يرنون إليه من تخصص، وتفعيل كل منهم ما آمن به من أنه كمؤمن ينبغي أن يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومن أنه كمسلم يلزمه أن يَسلم الناسُ من أذى لسانه ويده، ومن أنه كمهاجر إلى الله ينبغي أن يهجر ما نهى الله عنه، ومن أنه كطالب ودارس للعلم ينبغي أن يُعدّ نفسه ليتفوق في تخصصه ثم ليكون سفيرًا لمبادئه وقيمه، فيكون عنوانا للأمن والعدل والسلام في مجتمعه خادما للثقافة والمعرفة أنى كان، تطبيقا منها للسماحة والتآخي والرحمة والتكافل والتعاون على البر والتقوى حيثما كان، لا على الإثم والعدوان.

عالمية الرسالة

إن رسالة الطالب في مدرسة صلاح الدين الدولية والتي يُعِدّ نفسه لها بالعلم والتفوق فيه، وحسن الخلق والتطبيق له.. إن رسالته ليست محلية، إنه بعد فترة سيكون -بإذن الله- خريج هذه المدرسة الدولية، وهذه هي الركيزة الثالثة التي تقوم دليل صدق كل من أسهم وخطط وبنى وشيّد.

إن طابع العالمية واضح وطابع الإيثار بالخير للغير أكثر وضوحا، وطابع حب الإنسان لأخيه الإنسان أنى كان أوضح من أين يحتاج إلى برهان.

ثم إن طابع العمل لإسعاد الناس مهما نَأَتْ بهم الدار أو اشتط بهم المزار غدا أوضح من الشمس في رابعة النهار.

الأخوّة التركية-المصرية

فماذا نقول في الإخوة الأعزة أشقائنا الأتراك الذين تمكنوا من سويداء القلوب، وتربعوا على عروش النفوس حبا لهم وإكبارا لمكانهم وإعزازا لمكانتهم.. إنهم فتية آمنوا بربهم، وأنكروا ذواتهم، وضحّوا كثيرا وكثيرا من أجل إسعاد غيرهم...

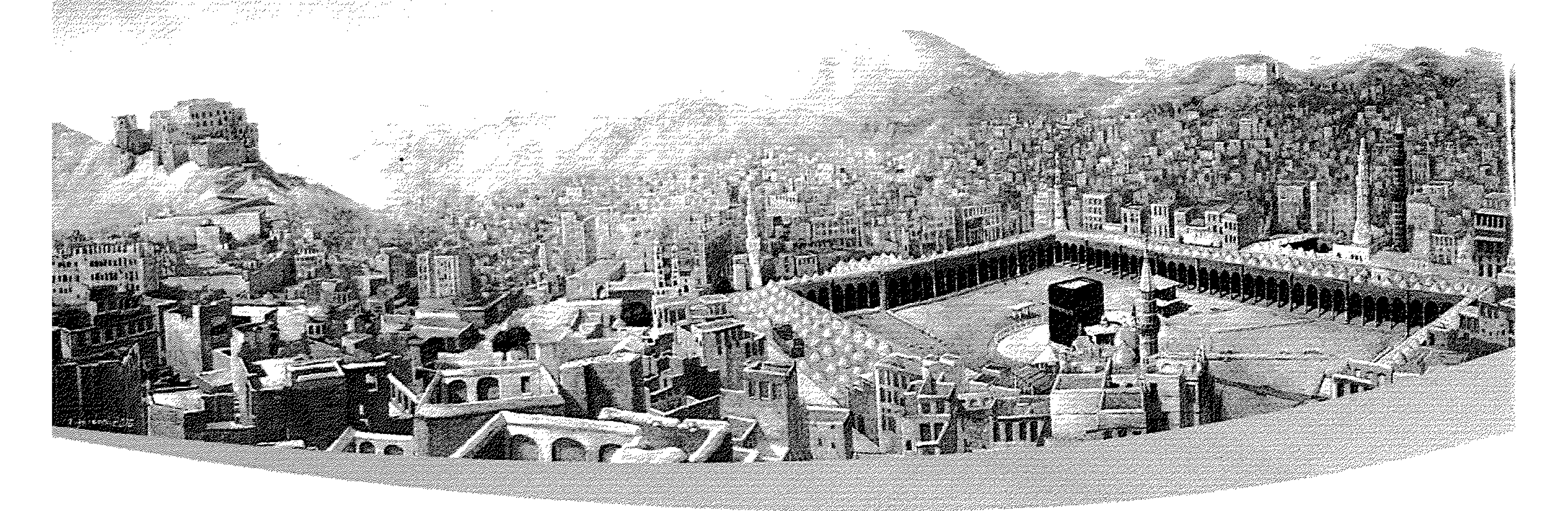
إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم. ولا غرو فقد تخرجوا في حراء، بدءا من النجم الأول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، ثم أخذوا يدرسون يحفظون القرآن والسنة، ويتفقهون في الدين ويعملون بما حفظوا وفقهوا وعلموا إلى آخر نجم أنزل الله سبحانه فيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣).

ومنذ النجم القرآني الأول كان العلم والعمل والتعليم؛ فكانت الربانية علما وعملا، ثم تبوءوا الدار عن بعد والإيمان عن قرب، فأحبوا كل من هاجر إلى الله وكل من يهاجر إلى الله، وأعادوا السيرة العطرة للأنصار فأحبوا وآثروا وصبروا وصابروا وآووا ونصروا وكفلوا وآزروا كل طالب علم مهما كان لونه أو لسانه أو فكره أو قطره، ونشروا الإيواء لطلاب العلم أينما كانوا، ونصروا التقدم العلمي حيثما همم به ذووه، وأحبوا كل محب لله ورسوله وبذلوا دون مقابل، وتكلفوا دون توقف على كافل، ولا تكاد تطلع منهم على قيادة أو قاعدة كأنما كلهم قادة أو كأنهم كلهم قاعدة لا رئيس فيهم ولا مرءوس، أذاب الحب في الله الفوارق وأبدلهم بها حبا وتفانيا وإيثارا وعملا لله لا للنفس، فأي إحسان بعد هذا الإحسان، وأي إيثار بعد هذا الإيثار؟ وأي حب لله ورسوله، وأي حب في الله ورسوله اتسم به هذا الفريق التركي في شمله النظيم وأمره الجميع، وتضحياته الفريدة؟! لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

اللهم أيدهم بأيدك، وشُدَّ أزرهم بجندك، وهيئ لهم ولنا من أمرهم وأمرنا رشدا. لقد قلتَ وقولك الحق: " ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٦٩)، وأذنت لنبيك محمد ﷺ أن يقول:" المرء مع من أحب"(متفق عليه).

اللهم آتهم تقواهم، اللهم أسعدهم بثمار أعمالهم هذه الصالحة في دنياهم ثم في أخراهم. اللهم إنا نحسب أنهم ممن علموا فأحسنوا، وأبلوا كذلك فأحسنوا. اللهم اجعلهم من الذين قلت في جزائهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾(يونس:٢٦)، وممن قلت فيهم: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل:٣٠)، وتقبل عنهم أحسن ما عملوا، وأنعم عليهم.بمعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا. ■

(*) عضو مجمع البحوث الإسلامية ووزير الأوقاف الأسبق / مصر.





ISSN 1306-1879
9 771306 187009 16
www.hiramagazine.com